الفصل 21

(ألما ماطر) تدل على جمهورية (عادية شعبية، ديمقراطية) أو تدل على مملكة، يتم انتقادها باستمرار، ولكنها مملكة مرغوبة كما يبدو، مرغوبة لاستغلالها في تحقيق بعض المكاسب الشخصية، مهمة أيضاً لسهولة الحصول على الأموال فيها وعلى العبث بقوانينها، بمرور الزمن أصبحت المملكة الأم الحنون التي تتفانى في حماية ولدها، فهي الأم الثانية بعد الأم الحقيقية، في الزمن القديم كان يحكمها محاربون تخلوا عن بدلة الحرب واستمروا في الحكم، أما الشعب فلا همّ له إلا الطّاعة والولاء، لكن الزمن تغير والشعب أيضاً، فهو يطالب بالمرونة، فالكل يرغب في العيش في رفاهية وأمن، بعض المنافقين لازالوا يلعبون بمصير الشعب.

ونتيجة كل هذا واضحة: بدل توجيه الحياة الاجتماعية نحو الطموحات الكبيرة تقوم الحكومات المؤقتة باستغلال الوقت الحاضر، بعد إجراء استطلاع بسيط وانتخابات أبسط من أجل إجراء تعديلات جذرية على الدستور، (ألما ماطر) لا تعبر عن إرادتها بل تكتفي بالاستماع فقط، تبخر الحكم وتبخرت السلطة أمام القرارات، فإذا تم تنفيذها فمفعولها رمزي فقط، لا يمكن للحكومة أن تعترض أو تقول مجرد: (لا).

أصبحت السلطة خلال القرن المنصرف في يد المؤسسات المالية والمجموعات المختلفة، أصبحت الديمقراطية لا تخضع إلا إلى المال والمال فقط، من الملاحظ أن

هذه الديمقراطية تخضع لسيطرة شركات التبغ فقط، لا تهديد من أي كان، من قبل كان أي تهديد مثل هذا يحدث ردة فعل قوية من الشعب، أمام (تبغ قايت) مثل هذا لا أحد يتكلم وخاصة تلك الجمعيات وأولئك الأفراد المناهضين لصناعة السّجائر، فلا حول ولا قوة لهم، فهم مجردون من أي سلاح لمقاومة هذه السلطة الخفية، الصعوبة الأولى التي تواجههم هي شرعية صناعة التبغ وقانونيتها، ولاشك أن (الما ماطر) لا تتجرأ ولا تريد منعها، بالإضافة إلى هذا فهذه الشركات مصدر رزق للكثير من مزارعي التبغ، بالاضافة إلى المساعدات المقدمة من الدول الأوربية بمقدار 7.400 دولار لكل هكتار من الأرض.

فالزراعة مضمونة لماذا التخلص منها؛ فالحكومة أصبحت مشلولة اليوم بإهمال من الناخبين بالأمس، أولئك الناخبون الذين استسلموا للأمر الواقع وتركوا السرطان يتغلغل في مملكتهم المسالمة.

كان لهذه المملكة ابنة عم تدعي (حمص) اشتهرت بمقاومتها للتدخين، فقد قامت ابنة العم بتحريضها على التحرك، لكن ملكة ألما ماطر لا تحب الضغوط ولا الإكراه، تريد فقط التصرف من تلقاء نفسها، فقامت بتكليف أحد الشيوخ البارزين بتولي هذه المهمة الصعبة وإعداد تقرير بخصوص ذلك، قام بذلك فذكرهم أن السّجائر قاتلة وأن آدباتريس، سوف يفتك بمليار شخص خلال هذا القرن، لا يكتفي التقرير بذلك، بل يؤكد أن المشكلة هي مشكلة الإنسانية كلها. مملكة (ألما ماطر) ليست المستسلمة الوحيدة، بالرغم من هذا اعترف الشيخ أن هناك إيجابيات للسجائر، فقال ساخراً: «إنها ضريبة على الجميع، الضريبة الوحيدة التي يدفع ثمنها أطفال أعمارهم (11) سنة أو أقل».

زيادة على ذلك ضريبة رسمية قدرها 76٪، حسب رأيه يجب التفكير جيداً في العواقب قبل أي تحرك، فهو يتصور أن أي تحرك قد يحدث ثورة عند الشباب الذين يحملون لوحات كتب عليها «أيها اللصوص تمتصون أموال دافعي الضرائب»، وأخرى من طرف غير مدخنين كتب عليها: تسممون المواطن الذي يدفع لكم الضرائب، هذه

الضـرائب تمثل 7 إلى 15٪ من مـيـزانيـة الشـؤون الصـحـيـة، و7٪ من الضـرائب المفـروضـة على السّجائـر قـد تغطي النفقـات المستـقبليـة. و15٪ منهـا تغطي فقط نفقات اليوم، ولا تكفي لتغطية نفقات الغد.

بموجب مـا تقـدم يتـضح أن نفـقـات هـذه المملكة على المدى القـصـيـر تغطيـهـا ضرائب المدخّنين، أضاف الشيخ الخبير أن أي ميزانية تخصص للوقاية من التّدخين لا تمثل إلا واحداً من ألف من الضرائب المفروضة على التّدخين، ولا تمثل إلا جزءاً زهيداً منها. فهو يتنبأ بمخاطر جانبية سوف يتعرض لها الوزراء بسبب هذه المبالغ الزهيـدة التي لا تكفي لحـمـاية المواطن من خطر السّجـائـر، سـوف يحـصل لهم مـا حصل في بلد مجاور، بما أن الوزير المسؤول عن الصحة العمومية بلَّغه هذا الخبر وخوفاً من مقاضاته بتهمة عدم إغاثة المواطن المعرض للخطر، فقد أمر بمضاعفة هذه الميزانية إلى أربعة أمثالها.

وبهذه الطريقة يكون الوزير قد أغلق هذا الباب واحتمالاته السيئة.

بالرغم من هذا الإجـراء أعـمت سـحـابة من الغضب مملكة (ألما مـاطر). ليس هناك مجال للراحة أبداً، يتابع شيخنا، ويقول: إن محاربة التدخين ضرورية؛ لأنها تحسن من زيادة فرص العمل، ويبدو هذا شيئاً غريباً طبعاً، ويتابع ويقول: إن عدد مزارعي التبغ قد لا ينخفض من جراء محاربة السّجائر؛ لأن استهلاك السّجائر في تزايد حول العالم، ودخل هؤلاء المزارعين مضمون بالمساعدات الحكومية، نهايتهم مربوطة بشركات السّجائر التي تبحث دائماً عن مزارعين أرخص، وخاصة مزارعي الدول الإفريقية، والدول المهددة بالتصحر؛ لذا التـزمت المملكة السكوت على هذه الظاهرة السيئة، غير أن كل مدخن يتوقف عن التّدخين يتم منحه راتبين أو ثلاثة رواتب إضافية سنوياً يتجاوز 1.500 دولار على العلبة الواحدة، أيتصور المدخّن أن ما يصرفه على السّجائر زيادة عن القهوة اليومية ومشروبات أخرى، كل هذه المصاريف سوف تخصص للرفاهية، فتسهم في زيادة الوظائف، إذا انخفضت نسبة المدخّنين بنسبة 40٪ سيسهم ذلك في إيجاد 500.000 وظيفة جديدة، هذا يهم مملكة (ألما

ماطر) التي تبحث عن أي وسيلة تسهم في الحد من البطالة؛ لذا اختارت الشعار الآتي: كل يورو يذهب إلى شركات السّجائر يسهم في اختفاء وظيفة، ومن التوصيات المطروحة محاربة التهريب والمهربين؛ لأنهم يسهمون في التهرب من الضرائب والحد من التّدخين والاستيلاء على جزء من السوق بصفة غير قانونية، هؤلاء المهربون يحرمون الدول الأوربية من مليارات نتيجة التهرب من الضرائب، جزء من هذه الخسارة تتحمله مملكة (ألما ماطر)، أما الجانب الإيجابي للسجائر (فهذا في الخيال فقط)؛ لأن شركات السّجائر يستفيد منها بعض الناس فقط، لو تم التخلص من بعض المدخّنين في سن الصغر (7 -14 سنة) سوف تقتصد المبالغ التي كانت ستخصص لعلاجهم، بالإضافة إلى نفقات تقاعدهم المبكر، وبهذه الطريقة يتحقق التوازن المفقود حالياً، (ألما ماطر) تود لو يحصل ذلك وتأسف لعدم تحركها هي وزميلاتها الأوربية لإيقاف شركات السّجائر والمهربين عند حدهم ووضع نهاية لعملياتهم الإجرامية.

يتضح أن أوربا تأوي العديد من العملاء المتعاطفين مع شركات السّجائر لأسباب معروفة وأخرى غير معروفة، منها التمويل لبعض الأحزاب السياسية، هؤلاء سمحوا باستمرار الدعاية بدعوى أن السّجائر تباع قانونياً، من هؤلاء العملاء كثير من رجال الأعمال الذين يعملون في الخفاء لصالح شركات السّجائر، ولا بد من اكتشافهم ووضع حد لأعمالهم المدمرة.

انتهى التقرير الذي أعده الشيخ الخبير بالتوصيات الآتية:

(الإجراءات اللازم اتخاذها فوراً)

- إلغاء كل أنواع الدعاية مباشرة أو غير مباشرة، ومنع كل وسائل الإعلان مثل اللوحات المضيئة، والملابس وسباق السيارات والفورميولاون بالذات، كما يمنع تمويل ندوات المودة والمسابقات أياً كانت التخفيضات على الأحذية المروجة للسجائر والإكسسوارات وأغلفة الجوالات وغير ذلك.

- تخفيض محلات البيع والتوزيع ومنح أصحابها تعويضاً مناسباً.
- تحديد سعر أدنى لعلبة لا تتجاوز 20 سيجارة.
- رفض أي احتكاك بشركات التبغ، سواء للوقاية منها أو لتقبل أموالها، وخاصة تلك التي كانت تخصص للأحزاب السياسية.
- تقويم كل المساعدات، غير المساعدات الصيدلانية.
- تحطيم صورة السيجارة بحملة كبيرة تساوي حملة العدو اللدود ووسائله المدمرة، يجب التركيز على الشباب المدخّن، خاصة الشاب المعرض للفشل المدرسي، المهضومة حقوقه، الحزين الوحيد، المهدد بالانتحار، المحروم من لذة الطعام ويفتقد إلى حنان الوالدين وقبلاتهما، حتى وسائل الماكياج وأجود الكريمات لا تؤثر في وجهه، كما يجب التركيز أيضاً على الدعاية الكاذبة حول الحرية والاستقلالية، كل هذا من أجل شباب يتمتع بحياة صحية أفضل، حياة مقبولة من الجميع، ويجب التخلص من الشعار الزائف الذي يدعي أن السّجائر هي رمز من رموز الثقافة والاقتصاد.
- بالإضافة إلى أنها مسببة للسرطان، فهي تقيد الحرية وتمتص المال.
- استخدام المشاهير من ممثلين ورياضيين وكتاب إلى آخره للإدلاء بشهادتهم بعد أن تحرروا من التّدخين.
- إعلان 31 مايو (يوماً عالمياً بدون سجائر) وإيقاف العمل مدة دقيقة واحدة ترحماً على ضحايا تدخين السنة الماضية.
- تعويض بائعي التبغ عن الخسارة التي سوف يتكبدونها بمنحهم مساعدة مناسبة ودمجهم بصفة قانونية في لجان مقاومة التّدخين.
- رفع أسعار السّجائر؛ لكي يتخلى الناس عن شرائها واستفادة الدولة من الضريبة العالية وفقاً للمعادلة.

- +10٪ على سعر البيع = -4٪ من المبيعات إذن: +6٪ من دخل الدولة.
- تشجيع المزارعين على التخلي عن زراعة التبغ وزراعة محصول آخر يستفاد منه.
- إجراء دراسة حول نتائج هذه الإجراءات ودراسة حول أضرار السّجائر بعد إدخال مادة لماعة على ورق السّجائر: وما هي إجابة من تبقى من المدخّنين حول هذا الموضوع بعد أن تخلى الكثير عنه.
- تسهيل عملية التخلص من التّدخين بحملات توعية تشمل الجمهور والمؤسسات، بالإضافة إلى المسؤولين عن الصحة العمومية.
- وضع خط هاتف أخضر يتلقى مكالمات المدخّنين لإرشادهم وتقديم النصح.
- إلغاء الضريبة الإضافية على المستوصفات والمصحات التي تساعد على التخلص من التّدخين.
- التكفل بجزء من نفقات العلاج (علاج إيقاف التّدخين).
- إجبار رجال السياسة بمن فيهم من الإداريين، والمدرسين، والأطباء والممرضين الذين لازالوا يدخنون على عدم التّدخين بالمرافق العامة وبصفة صارمة.
- إجبار كل المرافق العامة، بما فيها المدارس والمؤسسات على تطبيق الأنظمة الخاصة بحماية الجميع من التّدخين السلبي.
- إشعار المؤسسات بـ (ضرائب السّجائر) أي كل الضرائب التي سوف تتحملها المؤسسات التي تبيح التّدخين، وتقدر هذه الضريبة بـ 1500 إلى 5600 يورو على كل مدخن سنوياً.
- توعية المؤسسات؛ لكي تشعر أن مكافحة التّدخين سوف تحسن من إنتاجها وتزيد من المنافسة بين العمال وتسهم في رفع نسبة الفنيين السامين في المستقبل، بعد أن تنبأ الاقتصاديون بندرتهم سنة 2010م.

- توجيه المؤسسات لتتحول إلى مؤسسات خالية من التّدخين، وفيما بعد إلى مؤسسات خالية من المدخّنين.
- إجبار مصنّعي السّجائر على تجهيز كل علبة سجائر بمسطرة صغيرة لقياس آثار التّدخين على لون الفلتر؛ ليسهم ذلك في إيقاف التّدخين.
- مطاردة المهربين بصفة مستمرة وتسليط العقاب عليهم دون شفقة ولا رحمة ابتداءً من المتعاونين محلياً إلى الرؤوس الكبيرة المتسترة.

إجراءات يجب على أعضاء السوق الأوربية المشتركة اتخاذها

- إجبار شركات السّجائر على كتابة: (التّدخين مضر بالصحة) على واجهة من علبة السّجائر وإرفاق صورة في الواجهة الأخرى تعبر عن كل مضار السّجائر من سرطان وموت مفاجئ، وبتر الأطراف، والتجاعيد، والوحدة، والملل وضيق المعيشة.
- وتخصص مساحة قدرها سنتمتراً مربعاً واحداً للدعاية على كل علبة، وتكتب باللون الأبيض والأسود ويتم تعميم اللون الأبيض والأسود على كل العلب ومنع استعمال الألوان الأخرى عليها منعاً باتاً؛ لكي لا تتميز نوعية (ماركة) على أخرى.
- تعميم النصوص الصحية على المواطنين وجعلها تتماشى مع سلوك المدخّنين لتشجيعهم على التخلص من أي مادة مخدرة.
- إخضاع المصنعين لقوانين صارمة كتحديد نسبة النيكوتين والقطران وتحديد كل المواد الإضافية ومضراتها وخاصة تلك المعروفة من الجمهور والخطرة منها، بالإضافة إلى تلك غير المعروفة كالفورمول ومادة النيتروزامين والبنزوبيرين وحمض السيانيد، والكروم والنيكل والبولونيوم 210 المشع.
- يجب إشعار المدخّن أيضاً بمضار التّدخين على الجينات وعلى سلوكه، وبهذه الطريقة تصبح العلبة أداة تسهم في محاربة التّدخين ومحاربة أصحابه.

- إجبار أصحاب شركات السّجائر على التكفل بتكاليف العلاج لمن يصاب بواحد من الثلاثة والعشرين مرضاً المعروفة التي يسببها التّدخين.
- منع كل السّجائر التي تدعي أنها (لايت) خفيفة؛ لأن الميت ميت، سواء قتل بطلقة أو طلقتين أو ثلاث، فنهايته الموت.
- إجبار الشركات على تحديد المواد المضافة كافة دون استثناء وعمل قائمة لها دون إخفاء أي مادة مضرة بالصحة العمومية.
- إجبارهم على التخلص تدريجياً من هذه المواد الإضافية.
- إصدار قانون جديد لتحديد نسبة النيكوتين والقطران وقياسها.
- العمل على تعميم قانون على دول الاتحاد الأوربي لرفع أسعار السّجائر إلى أعلى مستوى، تاركين لهم الحرية في الزيادة أو النقصان بنسبة 5٪.
- وضع نظام تتبّع لكل علبة سجائر تباع.
- وضع برنامج عمل للتنسيق مع المنظمة العالمية للتجارة.
- يُقترح على المنظمة العالمية للتجارة بالتنسيق مع الدول الأوربية أن تتخذ إجراءات المراقبة والحد من الطلبات على المواد التي تدخل في تصنيع التبغ، إذ إن ذلك من صالح صحة الناس، والصحة أولى من أي ربح كان.

لهذا الغرض يجب إنشاء ديوان عام مستقل عن الحكومات التي تتعاقب وتزول، بينما التّدخين باق ويدوم، مهمة هذا الديوان ليست مهمة مالية ولا ضريبية، ويجب تدوين ذلك في دستور هذا الديوان، ويجب أن يلتزم الديوان بهذا الدستور كلياً، وألا يحارب، ويلغى مثله مثل السّجائر، وتقتصر مهمته على الآتي:

- يكون هو المشتري الوحيد لمواد التبغ.
- يقوم بتوزيع هذه المواد على نقاط البيع بصفة انتقائية.

- إلغاء أي تخفيضات وأي حوافز عن السّجائر.
- التصدي لأي عملية مضادة لعمليات الوقاية من التّدخين.
- إجبار المصنعين على تصنيع سجائر أقل مضرة من السّجائر الحالية.
- مساعدة نقاط البيع على التخلي عن بيع السّجائر وتشجيعها على بيع مواد أخرى.
- القيام بحملات توعية بالتنسيق مع الحملات الأخرى لحماية الشعب.
- إجراء دراسة عن إمكانية شراء مصانع السّجائر من أصحابها بالتنسيق مع المنظمة العالمية للتجارة.
- بموجب كل هذه الإجراءات الصارمة لا بد لمملكة (ألما ماطر) أن تتحرك، فقد قررت أن تستشير جارتها (حمص)، فهذا الجار العنيد يتسم بقوة أهل الشمال الذين لا يؤمنون إلا بما هو ملموس، عكس تماطل (ألما ماطر) وترددها ونفاقها، فإن حمص تتسم بصلابة الأب الصارم المتمكن المتحد، غريب أمره هذا الجار، فهو يتسم بصلابة (تاتسر) ولا يتساهل مع السّجائر.

قبلت مملكة (ألما ماطر) كل توصيات الجارة بما فيها إجبار الشركات على استعمال ورق بالمواصفات المطلوبة دولياً، (فليو) كما يسمونه، كل اقتراح يضر بمصالح شركات السّجائر مرغوب ومطلوب دون انتظار وتباطؤ (ألما ماطر) في تنفيذ الإجراءات. واقترح الجار العنيد تكاتف كل الدول الأوروبية العالمية من أجل محاربة السّجائر؛ فالكل يحلم بعالم خالٍ من التّدخين، وأصرت على أن صناع الموت العالميين متكاتفون ومتحالفون لتنفيذ جرائمهم النكراء.

لمواجهة هؤلاء المجرمين تقوم 215 دولة باتخاذ إجراءات انفرادية تختلف من دولة إلى أخرى لا تفيد ولا تجدي؛ لأنها تفتقد إلى الجدية والصرامة؛ فالجار حمص يرى أنه كفيل بالقيام بهذه المعركة إذا تعهد الجميع بالاشتراك فيها دون تردد. فهي تقترح اتباع سياسة متناسقة وإعداد خطة واضحة.

لمحاربة للسّجائر غايتها ما يأتي: مراجعة قانون حرية التّدخين المسؤول عن موت الكثير من الأبرياء؛ ففي هذا القانون إجحاف وتجاهل للإجرام والمآسي التي تلحق بعائلات المدخّنين ضحايا السّجائر، حمص يريد استشارة الشعب حيال هذا الموضوع.

عندما تذهب إلى بريطانيا تلاحظ أن الناس يسوقون على اليسار، تتعود على ذلك بسرعة، المدخّنون أيضاً يستطيعون ذلك؛ فالمدخّن الذي توقف عن التّدخين مثل السائق الجديد ببريطانيا، إن ذلك يشبه إلزام الناس على استعمال حزام الأمان والنتائج معروفة في كل أنحاء العالم، هنا أيضاً استطاع العالم بأسره أن يغيِّر سلوك السائق وعاداته، حتى السّجائر فمن له الرغبة في الإقلاع وله الإرادة فيمكنه تغيير سلوكه وعاداته.

هنا فطنت مملكة (ألما ماطر) وتساءلت:

- ماذا أستطيع فعله؟ وماذا يجب أن أفعل؟

- يمكنك البدء قبل إمضاء الاتفاقية بين أعضاء السوق المشتركة، فيمكن البدء بتنفيذ بعض الاقتراحات التي سبق وأن اقترحها عليك شيخك الحكيم: برفع أسعار السّجائر بزيادة بين 20 و30٪، وبعد مدة عمل الشيء نفسه، فهذا سوف يقع على الصانع وقع الصاعقة وعلى الشباب المدخّنين أيضاً، قم بذلك ولا تخف من أعمال المصنعين الشيطانية، فسيقومون دون شك بمهاجمة شحنات السّجائر أو حرق بائعيها لبث الرعب لديكم لثنيكم عن تأجيل قراركم أو إلغائه أو عدم تنفيذه أصلاً، ويمكنهم أيضاً التلاعب بالتغليف لإهانة أصحاب القرار، وخاصة الشؤون الصحية، يمكنهم أيضاً إلغاء مفعول الزيادة بتخفيض عدد السّجائر في العلبة الواحدة لتخفيض سعرها، انتظر أي شيء تتوقعه من هؤلاء الأوباش.

يمكنهم فعل أي شيء، لقد حذرتك، فلا تنس عند كل زيادة تفرضها عليهم أن تقوم بتعليلها: من أجل صحة المواطن، لا من أجل الضرائب. إذا لم تفعل ذلك فسوف

تخسر الانتخابات القادمة، يمكنك أيضاً ملاحقة المهربين في كل مكان ومنع أي نوع من الدعاية المباشرة وغير المباشرة، ومنع التّدخين في الأماكن العمومية وغيرها ووقاية غير المدخنين في المؤسسات وفي كل الأماكن العامة، يمكنك أيضاً منع بيع السّجائر بالسيجارة الواحدة ومنع سباقات السيارات الفورميولاون الممولة من قبل مصانع السّجائر، وإشعار المدخّنين وغير المدخّنين أنكم تفعلون ذلك من أجل حمايتهم، يجب مخاطبتهم بكل صراحة وإقناعهم بالعمل معكم للكف عن التّدخين، ويمكنكم أيضاً منع وضع مكائن التوزيع الآلي في الأماكن العمومية والمقاهي وغير ذلك، ومنع تمويل النوادي الرياضية أو الثقافية من شركات التّدخين، يمكنكم أيضاً الاقتراح على القائمين على التلفاز أو موزعي الأفلام إلغاء اللقطات التي تستخدم التّدخين أو تهديدهم بالمقاطعة، وسوف يرفضون لكنهم سرعان ما يستجيبون وهذه فكرة رائعة لثنيهم، وذلك باستخدام الشعار الآتي: إذا أردت أن تصبح غنياً فتوقف عن التّدخين، ويمكنك استغلال هذا الشعار واستخدامه كسلاح جيد.

يمكن تصعيد معركة محاربة التّدخين التي كانت تقوم بها حتى الآن بعض الجمعيات وبعض الندوات وقلة من الباحثين وبعض التجمعات والاتحادات والجماعات وغيرهم بما فيهم الاتحاد ضد التّدخين، والاتحاد هو ما يلزمك؛ لأن كل هؤلاء يحاربون الشركات دون تنسيق مجهودهم، بينما شركات السّجائر تدافع عن مصالحها وتقاوم مع بعضها، ويمكنك إنشاء منظمة تقوم بالتنسيق مع كل من يحارب التّدخين لتوحيد المعركة، بعمل برنامج وتحديد الوسائل لمتابعة هذه المعركة، فتايلندا تعد من الدول الرائدة في هذا المجال، وقد أثبتت نجاحها. يجب أن تقفوا موحدين ضد هؤلاء الأشرار، يمكنكم تكليف هذه المنظمة بعملية التوزيع لكسر جناح الشركات المصنعة التي تعتمد على العرض والطلب، ولا يمكن أن تقوم بهذه المهمة إلا منظمة قوية ومتماسكة، فلا يقوم بالمعالجة إلا الطبيب، كما يقول المثل.

أنا أظن أنه يلزم إيجاد مدير محنك لإحدى شركات السّجائر، بحيث يعمل على اكتشاف أسرارهم وألاعيبهم، ويعمل بصفة فاعلة، مع مضاعفة المجهود إلى 100٪،

ويمكن تخصيص 1٪ فقط من الضرائب لإنجاح هذه المهمة؛ لتُكسَر شوكة السّجائر وتُحطَّم صورتها السيئة القبيحة.

- وهل تظن أن هذه الطريقة ستنجح؟

- في كالفورنيا مثلاً انخفض عدد المدخّنين بـ 700.000، مدخن، فكل دولار استثمر في معركة التّدخين رجع بالفائدة على الشؤون الصحية بتوفير ثلاثة دولارات وخلق وظائف جديدة، وكندا هي الأخرى أصبحت نسبة المدخّنين فيها لا تتجاوز 15٪، وتكاليف كل سنة يعيشها المدخّن هي (30) يورو، أما تكاليف المريض بالسكر فتساوي 15000 يورو.

- ولكن لتكون المعركة ناجحة يجب على أوروبا كلها أن تشارك في المعركة نفسها، ولتكون أنجح يجب مشاركة العالم أجمع فيها.

- هذه طريقة للتهرب من المعركة، إذا قمت بمواجهة شركات السّجائر اليوم فلن تكون الوحيد في العالم ولا آخر من يواجهها، أوربا كلها ومنظمة الأمم المتحدة أيضاً ستشارك في هذه المعركة، ولكن لا يستطيع لا هذا ولا ذاك القيام بمعركتك.

- برأيك ما هي الطريقة السهلة وغير المكلفة للقيام بحملة ناجحة؟

- إقناع كل طبيب، وكل ممرض، وكل مدرسة باقتناء جهاز قياس نسبة النيكوتين وتدريبهم على دقة استخدامه لإجراء هذه القياسات.

- سوف أواجه معركة شرسة مع شركات السّجائر؛ لأنها سوف تطالب بمناطق للمدخنين في المرافق العامة، وسوف تطالب بحق المواطن في التّدخين.

- دعها تطالب بما تشاء وقم بتغيير القوانين التي لا تخدمك وعدلها بقوانين تساعدك على رفض مطالبها.

- فغير المدخن له الحق أيضاً في تنفس هواء نقي غير ملوث، أما المدخّن فله الحق

في التّدخين بشرط ألا يصل دخانه إلى أماكن تأوي غير المدخنين، أماكن لا ترغب الدخان أصلاً، في هذه الحالة يصبح التّدخين عملية غير قانونية؛ فالمدخّن وغير المدخّن له الحق في السلامة والأمن، ومن أجل سلامتهم يلزم التقليل من الدخان أو الحد منه ومنع شركات السّجائر من إغرائهم بإعلاناتها المعسولة الخادعة، لكل فرد الحق في التّدخين أو عدم التّدخين أو التوقف عنه وله الحق أن يسمع رأيه، كما له الحق في المطالبة بالتعويض في حالة إثبات ضرر التّدخين على الصحة، بالإضافة إلى حقه في العيش في جو سليم خال من الدخان، أود لو تجردتم نهائياً من أي شعور بشيء من المودة التي كنتم تبدونها لأصحاب هذه الشركات المدمرة، أنتم لا تجهلون أن القضاء الدولي يتهمهم بإحدى عشرة تهمة من بينها تهم القتل العمد والمنظم ضد البشرية كالتعذيب والإبادة الجسدية وغيرها من الأعمال التي تسبب إعاقة دائمة أو مرضاً مزمناً أو إعاقة عقلية، تولّد آلاماً دائمة ومميتة. تلك هي الاتهامات الموجهة إلى صناع التبغ المميت، سوف أعمل كل ما في وسعي لمحاكمة هؤلاء القتلة في المحكمة الدولية، إني أنتظر مساعدتك في هذه القضية حتى ميلوزفتش السفاح لا يثير الخوف مثل هؤلاء المجرمين، فهو قاتل هاوٍ بالنسبة لهؤلاء المحترفين.

اقتنعت ابنة العم (ألما ماطر) وانصرفت مستعدة للتحرك، تم استدعاء وزير المالية المشهور بتدخينه، وفوجئت أنه قام بزيادة الضرائب على التّدخين آخر لحظة وتخصيص جزء منها لخدمة الشعب، وشاركه وزراء آخرون في استخدام جزء من هذه الضرائب لصالح المصلحة العامة أيضاً، وزير الداخلية مثلاً استغل هذه الأموال لمحاربة الإرهاب على المدى القصير، المهم هو زيادة هذه الضرائب وعدم الاهتمام لمن تذهب هذه الأموال، يقول المفكر الكبير (تاليراند): أتعهد بالقضاء على هذه الآفة الرهيبة يوم تدلونني على فضيلة واحدة قادرة على أن تدر الملايين على الدولة سنوياً؛ لذا المهم أن نسلبهم الملايين والمليارات إذا أمكن.

الفصل 22

بلغ (أنت) 22 عاماً من عمره، بمناسبة عيد ميلاده كانت هدية ابنته (أورور) (الفجر) ابتساماتها المتواصلة، كاد يذوب أمام هذه الابتسامات البريئة وهي في حضن أمها فلورانس، نسي (أنت) الشعار العالمي الذي يدعو إلى عالم دون سجائر، لكن أباه ذكره بحملة سنة 2001م الجديدة: «الدخان السلبي يقتل، فلنقم بتنقية الهواء»، ثم قال الأب بعد أن كف عن التّدخين وأصبح من أشد المحاربين له:

- هذا ما قمنا به في العمل وفي البيت.

تساءل أبو (أورور) كم من قارئ وقارئة يعرفون معنى هذا الشعار الجديد؟ فهو يعرف معناه جيداً، ولكنه يعد نفسه غير معني بهذا الشعار؛ لأن أغلب غير المدخنين فرضوا عليه عدم مجالستهم أو المغادرة لتلويث الهواء في مكان آخر، في الشركة التي يعمل فيها يمنع التّدخين إلا في المكان المخصص لذلك في القبو الذي يفتقد إلى التدفئة ووسائل الراحة، غير أنه مجهز بجهاز شفط الدخان.

حملة محاربة التّدخين هذه لا يرتاح إليها أحسن زبائنه، فهي تطارد المدخنين في كل مكان ولا تسمح لهم باسترجاع أنفاسهم، لقد فقدوا حقهم في التّدخين، هذا ما قاله هذا المشتري المهم، أبو (أورور) الذي تنبأ بأكثر من ذلك، فسوف يفرضون

حصاراً كاملاً على المدخّنين، شبه (أبارتايد) ضد المدخّنين، وهذا سوف يؤثر في الاستهلاك للسجائر، وربما تضطر الشركة إلى البحث عن مكان آخر أكثر أمنا لنقل مصنعها إليه.

سوف تلتحق زوجته بالتدريس هذا الصيف في شهر يونيو، أما ابنتهما (أورور) فكانت تتنقل من جدة إلى أخرى، بينما العطلة الصيفية فقد تم الاتفاق على قضائها في بيت ريفي صغير، يبعد 100 كلم عن بيتهم، فهو بيت مريح يؤمن لهم الهدوء والطبيعة الجميلة، وفي شهر أغسطس قام الزوجان بإجراء تعديلات في سكنهم لتحسين المعيشة، فكان لابد من اللجوء إلى البنك من جديد لأخذ قرض لهذا الغرض.

وفي 9 سبتمبر تمت الموافقة على إجراء الدورة بأمريكا، وتقرر سفر أبي (أورور) في شهر فبراير 2002م على أمل البقاء هناك شهراً، كان لذلك أثر كبير عليه، فهذا دليل على أنه سوف يُثبّت ويستمر على رأس وظيفته مهما كان قرار أحسن زبائنه الذي يفكر في الرحيل؛ لذا يجب عليه إتقان لهجة تكساس التي سوف يقيم بها مدة شهر كامل، بعد يومين انهارت أبراج المركز العالمي بنيويورك وانهار معها مشروع الدورة ككل. تابع هذا الحدث مليارات من المشاهدين، هذه المأساة تعادل جرائم صانعي التبغ حول العالم مدة 5 ساعات أي 0.05٪ من إجمالي ما يفتك به التّدخين سنوياً، وكان لابد من التوقف عن العمل دقيقة ترحماً على ضحايا هذه الجريمة النكراء.

لقد خيم جو من الهلع لا مثيل له، شمل الأسواق المالية وغير المالية، قامت الشركة التي يعمل فيها بإلغاء كل السفريات الدولية التي كان مخططاً لها منذ مدة، وبقيت الحجوزات الداخلية سائرة المفعول داخل أوربا، لم يحصل أي تغيير على مبيعات أبي أورور، حتى تلك الخاصة بأحسن زبون له ارتفعت لطمأنة الزبائن المدخّنين، وفي هذه الأثناء تفاجأ من جديد بالرسالة المجهولة ففتحها وقرأها باحتقار ثم سلمها إلى فلورانس، فكان مضمونها كالآتي.

لقد تم الحكم عليك بالموت من طرف

يتبع

منذ 5 سنوات وهذه اللعبة تدوم، هذا خبر جيد: إنه يوحي أن الرسالة القادمة سوف تكون الأخيرة.

- لكن، قل لي ماذا فعلت قبل سنة 96م حتى يتم الحكم عليك بالموت؟

- لا شيء، كان يمكن أن تتجه هذه الرسالة إليك، أنت أيضاً مهددة كلنا مهددون، أليس كذلك؟

- طبعاً كلنا مهددون؟ لكن سوف يتضح ممن في الرسالة القادمة، لننتظر هذه الرسالة، قالها الزوج وهو يسعل.

- هذا لا يمنعنا من التفكير، قالت فلورانس ذلك بشيء من الدهشة: باستمرارك في التّدخين تذكرني بركاب طائرة تمكن منها الإرهابيون، فصار ركابها ينتظرون نهايتهم وكأنهم يشاهدون لقطة سينمائية لإحدى الكوارث.

بعد شهر من استلام هذه الرسالة قام الزوجان بإجراء موازنة لحياتهم الزوجية واستعراض الإيجابيات والسلبيات، تم ذلك في أحد المطاعم الراقية في أثناء العشاء، قرر الزوجان إجراء بعض التعديلات على حياتهما لتحسين الوضع، وقررا أن يتم ذلك في أوقات معينة، كان كل واحد يعتقد أن علاقتهما إيجابية، فقررا بموافقة الطرفين الاستمرار سنة على هذا المنوال، النقطة السوداء في هذا كله هي التّدخين اليومي، كما يجب عليه أن يعطي وعداً على نفسه أن يقلل من التّدخين للوصول إلى 5 سجائر يومياً قبل عيد ميلاده الثالث والعشرين، بالرغم من الصعوبات التي واجهها من قبل، فقد قبل هذا التعهد، إنه يعرف أنه سيواجه الصعوبات نفسها لكنه سوف يصمد للتقليل من أثر النيكوتين المتزايد عليه، إنه يعرف أيضاً أن موافقته بالتقيد بعهده مرهونة بمدى صدقه في الوفاء بذلك، وهذا يضايقه بالطبع، هرب من الواقع وأخذ يحلم، فرأى فجأة أن عروساً سحرية ذكرته

بأحاسيسه الأولية عند بدايته التّدخين، في الواقع ليس هناك أي عروس سحرية، بل إن إحساسه الشديد بالرغبة في النوم هو الذي جعله يشعر كأنه في حلم، لقد خدعه صديقه فيليب وكذلك موريس، كلامهما كان مجرد كذبة، كذبا عليه عندما قالا له في بداية تدخينه: إنه يمكنه التوقف عن التّدخين متى ما شاء، فكانت العلبة الأولى عبارة عن علبة محشوة بالأكاذيب.

غادر الزوجان المطعم، وكان أبو أورور يتململ بين الحلم والواقع، كيف لعب عليه موريس وفيليب بأكاذيبهما؟ عند توقفهما عند أول إشارة فاجأهما أحد المارين بتوقيف سيارته وتفريغ طفايته أمامهما، كان أبو (أورور) لا يتوقف عن التّدخين، لقد توقف عن تناول الشراب التي أعطاه إياه الدكتور؛ بدعوى أنه يحتوي على مادة النيكوتين المضادة للسعال.

منذ زواجه توقف عن مزاولة الرياضة وكل نشاط فيه خطورة على قلبه، في السنة السابقة كان يزاول رياضة الهرولة مدة ساعة يومياً، أما هذه السنة فاكتفى بالمشي فقط؛ لأن نَفَسَه ضعف ثم قال في داخله:

- سوف يزول كل شيء.

الفصل 23

بعد أربعة أيام وصل ملف (دوبوا)، كان آدباتريس في اجتماع مع الستة زملاء بمقر الشركة الرئيس بسويسرا، موضوع اللقاء التنسيق حول سياسة الدفاع عن المصالح، بتعبير آخر مقاومة الأعداء، أعداء التّدخين مهما كان حجمهم، فالموضوع مهم جدّاً، لدرجة أنه تم تجنيد كل المحامين العاملين لصالح الشركة، بالإضافة إلى أعضاء اللوبي.

هؤلاء الأعضاء يتمتعون بقدرة مالية كبيرة مثل تلك التي يتمتع بها اللوبي الصهيوني المدافع عن إسرائيل أو ذلك اللوبي القوي الذي يدافع عن صناعة الأسلحة، فهم يتدخلون على ثلاث جبهات:

أولاً: يدافعون عن حق المدخّن في التّدخين، ويعدون الجمعيات والمؤسسات المناهضة للتدخين، وحتى بعض الحكومات أعداء لهم.

ثانياً: يحاربون الأحزاب بتقديم الرشوة لهم.

ثالثاً: يقومون بعرقلة كل القوانين التي تصدر ضد التّدخين، فلا يتصور أحد قوة هذا اللوبي في التأثير على عالم السياسة، وعالم التجارة سواء أكان حراً أم عاماً، وحتى منظمة الأمم المتحدة لم تسلم من شرهم، فهم يلجؤون لكل الحيل، حتى أصحاب القرار لا يسلمون من مؤامراتهم. وزير بريطاني سابق شغل وزارة الصحة ثم وزارة المالية، ومدخن شرس ومدمن على الشرب وقع في قبضتهم وزوّدهم بما يريدون.

كانت الشركة تقاوم على كل الجبهات، تقاوم الدول وتقاوم المقاطعات، والمدن ومنظمات الأمم المتحدة، أما اللوبي فكان يركز ضغطه على رجال السياسة، ناصحاً إياهم بالتنسيق معهم وإلا.. في حالة فشلهم في الانتخابات يستغلهم اللوبي ويوفر لهم من المال ما يكفيهم بقية حياتهم، مقابل ذلك يبدون ولاءهم لشركات السّجائر وإباحة التّدخين، أما شركات السجائر فتقوم بتمويل حملات سياسية من أجل نشر الديمقراطية كما يدّعون، يقومون بتقديم الرشوة لرجال السياسة وكبار الموظفين وحتى الصغار، كلهم يشاركونها في هذه المؤامرة القذرة، دور الموظفين الصغار مهم جداً، فهم الذين يقومون بتعطيل بعض الدراسات أو بإلغائها، كما يقومون بإعاقة بعض التحقيقات، وإخفاء أو إبطال بعض الإجراءات المهمة، ويقومون أيضاً بتغيير أو استبدال بعض القوانين بأخرى، وبهذه الطريقة يسمحون لرؤسائهم بالتصرف بكل حرية وتجنب المتابعة المباشرة أو النقل الاضطراري، في بعض الأحيان يحتاج السياسيون إلى دعم إضافي لتبرير مواقفهم، فيقوم بوادر وجوركا بتزويدهم بدراسة وهمية تسهل من مهمتهم، فقد كان التنسيق بين رجال السياسة وصناعة التبغ ورجال الإعلام في غاية من التكامل، آدباتريس أراد أن يضع تقويماً خاصاً بنقطة الضعف لكل من يتعامل معهم، لكن زملاءه منعوه من ذلك؛ خوفاً من اكتشاف أمرهم، فطلب منهم الاهتمام بكل الجمعيات المدافعة عن صحة المواطن التي تتجرأ على المساس بمصالح الشركة، وخاصة عندما يقوم المدافعون عن مصالح الشركة بمحاولة إلغاء أو تأجيل أي قانون يعترض عملها، وكانت مهمة جوركا التأكد من صلاحية هذه القوانين وصحتها، يجب إجراء تحقيقات مع كل مسؤول لاكتشاف وسائل الضغط المحتملة، بما أن الرشوة لا تفيد أحياناً فيجب استخدام هذه الأموال في الإجراءات القضائية، إذا أهينت هذه الجمعيات أمام القضاء فسوف تندم بسرعة على التحرش بصناعة السّجائر.

أما بخصوص تشجيع العلوم والكتّاب فقد قررت شركة التبغ التحرك على ثلاثة محاور، الأول: يخص المؤسسات الصحية، وخاصة تلك التي توجه عناية خاصة

لمرضى التّدخين، المتفرقين الذين يتم اختيارهم من بين الأطباء والممرضين المدخّنين، وسوف يتم تخصيص مبالغ خاصة لهؤلاء؛ ليستمر توهجهم وحبهم للسجائر، وربما جعل بعض منهم من الأنصار الكبار للشركة الصانعة أو على الأقل تحييدهم، أما المحور الثاني فيهتم بالأماكن التي يوجد فيها الشباب وصغار السن، وخاصة تلاميذ المدارس، مثل المدارس والمرافق الثقافية وقاعات العرض والفنون والمرافق الرياضية، أما المحور الأخير فيشمل وسائل الإعلام، حيث يتم تخصيص ميزانية خاصة لدعوة الصحافيين والكتّاب ومشاهير آخرين لإقامة محاضرات تشارك فيها الجماهير تكون عناوينها مثلاً هل اللذة أصبحت في خطر؟ يمكن البدء بموضوع كهذا وبهذه المناسبة، ولقد خصص مبلغ محترم لدعوة بعض الشخصيات المميزة لتأكيد المقولة المفضلة: «الأفضل التحدث عن اللذة بدلاً من التحدث عن المرض».

أما جوركا، فقد تم تكليفه بمهمة خاصة، وهي تخويف وإرعاب متعاملين قدامى تخلوا عن مناصرتهم؛ فالعديد من كبار الكوادر وكبار الشخصيات الذين كانوا يحملون لواء الشركة أصبحوا يناصرون أعداءنا ويقفون ضدنا، بالرغم من أنهم لا يشكون من أي مرض، لقد تقرر التخلص منهم بأي وسيلة، فالشركة لا تريد أن تسمع صوتهم ثانية، بخصوص الحقيقة المرة وهي «تألم المدخّنين أو موتهم المحتوم»، فهي لا تريد أن تسمع ثانية «إنها تتهرب من الضرائب» أو «تقوم بتبييض الأموال» أو «تزوير دفاتر المحاسبة» أو «تحويل أموال عمومية» أو «التهرب من العدالة» و«انتهاك حقوق العمال» و«تلويث الهواء» و«التهرب من الدخل القومي» و«المشاركة في جنازة القتيل بعد التخلص منه» أو «بائع السرطان بالإنترنت»...

وبعد أسبوعين جاء دور محاضرات من نوع آخر، محاضرات حول عصابات التهريب، وهو الموضوع المحبب لشركات التبغ، فعصابات التهريب تعد العنصر الأساس في توزيع السّجائر حول العالم فقد تم تحديد الكميات التي سيتم تهريبها في المستقبل القريب إلى 350 مليار سيجارة، قررت الشركة أن لا تتجاوز كمية السّجائر المهربة إلى بعض الدول 30٪ من مبيعاتها، ولقد ساعدت الشركة في السبع

سنوات الأخيرة في مضاعفة عمليات التهريب، بينما انهار دخل الدول المعنية بالتهريب إلى أدنى مستوى؛ مما جعل الكثير منها تفكر في رفع قيمة الضريبة الجمركية إضافة إلى الضرائب الأخرى، بالنسبة لشركات التبغ، فإن عمليات التهريب تساعد على بيع السّجائر بأسعار معقولة نظراً لعدم رفع الضرئب، بالإضافة إلى سهولة تمريرها إلى دول أخرى. فعلى سبيل المثال يقول آدباتريس: إن مبيعات السّجائر بإسبانيا ارتفعت بنسبة 37٪ بمساعدة من المهربين ودون أي دعاية، وقد قررت الشركة الحد من أعمال المورد بدويلة (الأندور) الذي استطاع توريد سجائر مجهولة الهوية وغزو السوق حتى أصبح معدل التّدخين فيها 65 سيجارة يومياً، ولكل ساكن.

وما هو دور المحامين في كل هذا؟ عادة هم من المتعاملين مع كل شيء اسمه نصب واحتيال؛ لذا طلبت منهم إدارة الشركة مراجعة العقود المبرمة مع الموردين المهمين الذين لا يتجرأ أحد باتهامهم بالمهربين، طلبت منهم طمأنة هؤلاء التجار؛ لينامو مرتاحين آمنين، كما طلبوا منهم إشعارهم بأن 10.000.000 سيجارة سوف يتم تخزينها في مستودعين في بلد أو بلدين قبل أن تصل إلى وجهتها النهائية.

طلب من أحد المحامين إعداد دورة خاصة لبعض الموردين يعلِّمونهم فيها كيفية التصرف في حال اكتشاف البضاعة المهربة؛ حتى لا يتكرر الشيء نفسه مرة أخرى وتقع الشركة في موقع حرج. تقرر أيضاً المحافظة على العلاقة الجيدة مع بعض الوكلاء الذين يتعرضون للمحاكمة والدفاع على كل من هو مخلص للشركة أدبياً ومالياً.

قامت الشركة وشركاؤها بالتمسك بالتهريب إضافة إلى عمليات غسل الأموال، بالرغم مما يكلفها من متاعب وملاحقات من طرف السوق الأوربية المشتركة، مقاومة أوربا تزداد يوماً بعد يوم، قُدِّمت دعوى ضد الشركة تتضمن 200 صفحة من الاتهامات، لكن القضاء عجز عن معاقبة الشركة، عجز القضاء في إدانة الشركة واستخدام قانون مالي خارج بلده، طلب القضاء من السوق الأوربية إعادة صيغة

الشكوى بتهمة التعدي على الحقوق العامة، نتيجة عملية غسل الأموال والتهريب، فتم ذلك فعلاً، العديد من أعضاء السوق سحبوا موافقتهم على مقاضاة الشركة، ولم يبق إلا خمسة منهم متسامحون ومتعاونون مع الشركة.

بالرغم من هذه الدعوى الجديدة؛ فالشركة استطاعت الخروج سالمة من ادعاءات السوق بأن الشركة تساعد عمليات التهريب وتمولها.

بعد هذا تم اتهام الشركة بتبييض أموال وبيع المخدرات وبيع الأسلحة، وحتى تلك التي تأتي من الدعارة والمتاجرة بالجنس البشري، من ضمن الاتهامات الموجهة للشركة من السوق المشتركة جمع الأموال من المافيا وأحد أولاد صدام حسين.

لقد تم وصف عمليات تبييض الأموال بدقة كبيرة في الحسابات السويسرية، أو القبرصية أو البنمية، بالإضافة إلى المواني المستخدمة في عمليات التهريب كفلانسيا، وبنما، وانتوارب ومواني قبرص وتركيا، حتى الحاويات وأرقامها تم وصفها بمنتهى الدقة.

بعض العاملين داخل المافيا الذين استسلموا للسلطات المعنية اعترفوا بكيفية تهريب الأموال بواسطة تهريب السّجائر، إذ السوق المشتركة هي المتضرر الأكبر؛ لأن فوائد السّجائر لا تدخل في خزينتها، بل يتم تهريبها إلى بنوك آمنة خارج أوربا، أكثر من 95 مليار يورو تفلت سنوياً من أيديهم.

تجارة السّجائر حولت الساحة الأوربية إلى قلعة إجرام، تحاربها الدول الأوروبية وتطلب التعويضات الناتجة عن هذه الجرائم، وقد تم تجنيد كل الدوائر القضائية لمحاربة هذه العصابات الإجرامية، أكثر من 300 عملية تفتيش تمت بأوروبا وسويسرا. بعض من المئة والخمسين الذين وجهت لهم التهم كانوا على وشك الانهيار.. لكن القضاء كان غير منظم، وإلا تعرضت الشركة إلى كارثة قضائية، بعد ثمانية عشر شهراً قامت إحدى الدول الأوربية برفع قضية ضد برومورتيم بسويسرا.

الفصل 24

في عيد ميلاد (أنت) الثالث والعشرين تمت دعوة أبو (أورور) وفلورانس و(أورور) إلى وليمة لدى أبي المدخّن، عمت الشوارع بلوحات كتب عليها رياضة دون تدخين بمناسبة اليوم العالمي بدون تدخين، بعض المعارضين لهذه الحملة تركوا تحت هذه اللوحات علب سجائر فارغة، بالإضافة إلى بقايا سجائرهم، بعض الهواة للسخرية قالوا: إن هذا من الفنون التشكيلية الحديثة، قام الوالد بالاستماع إلى مقطع موسيقي ناعم للاحتفال بمناسبة يوم دون سجائر، بالإضافة إلى تخلصه من هذه الآفة السامة، فكل هذه المعلومات كان لها وقع إيجابي على أبي (أورور) الذي كان بحاجة إلى مساندة الحاضرين.

- قال أبو (أورور) مازحاً: يا لك من بائع شاطر.

لأول مرة أحس المدخّن بقدوم عطلة الصيف بنكهة خاصة؛ لأنه كان مرهقا من جهة أغلب زبائنه المترددين عليه، والآخرين الذين أجّلوا طلباتهم أو قاموا بإلغائها، من حسن حظه حصلت معجزة ووصلت مبيعاته إلى 84٪ مما هو مطلوب منه خلال ستة أشهر، كيف ستكون المبيعات في الستة أشهر القادمة؟ الله أعلم، ومن جهة أخرى فقد أتعبه السّعال وأنهكه، إنه يعرف أن سعاله هذا مصدره بروموريتيم، أما ضيق التنفس الذي ينتابه في المساء، فهو نتيجة تدخينه اليومي، بإمكانهما اصطحاب ابنتهما في سفرهما؛ لأن العائلة تستعد لتغيير الجو على الساحل

الأطلنطي، في ذلك الشاطئ الجميل الذي زاره وأحبه من قبل، رجع أبو (أورور) إلى ذلك الشاطئ الذهبي الذي تظلله أشجار الصنوبر العطرة، وكانت تتخلل أوقات السباحة زيارات لحديقة الحيوانات في البالمين والميدوك، كل العائلة في منتهى السعادة.

كان أحد المتسولين يجمع بقايا السّجائر من القمامة؛ ليبرم سجائره، تأثر أبو (أورور) من هذا المنظر، وكان في منتهى السعادة؛ لأنه لم يحصل له ما حصل لهذا المسكين، فهو من المحظوظين، وقصد هذا المسكين وسلمه ما تبقى من علبة سجائر كانت بجيبه فقالت له فلورانس متعجبة:

- إذا كانت مضرة لك، فهي مضرة له أيضاً، بالرغم من ذلك فرحت؛ لأنه تخلص من بعض السّجائر.

عند عودته إلى العمل في شهر أغسطس من سنة 2000م اكتشف أبو (أورور) زملاء لم يعرفهم من قبل، أصبح لا يتحمل البرد، وأي نزلة قد تسبب له سعالاً شديداً، يجبره السعال أحياناً على التخلي عن سجارته في أي لحظة، لكنه سرعان ما يعوضها بأخرى، نصف زملائه لا يدخنون فهو لا يحسدهم على ذلك، ولكنه يرى أن أوقات التّدخين في المكان المحدد لذلك بالشركة يعرّفه على زملاء يدخنون، فيتناقشون في أشياء أخرى غير بيع المواد المضافة إلى جناح الموت...

بادره أحدهم قائلاً:

- ما بك؟

- إنها نزلة اعتدت عليها، ربما بداية ربو؟

- وهل أجريت كشوفات على ذلك؟

- لقد كشف علي الطبيب وأعطاني شراباً لم أستفد منه كثيراً. مثل ما جاءت هذه النزلة سوف تنصرف وتزول.

- في سبتمبر اشتد مرضه حتى أصبح يرى في بصاقه نقاطاً من الدم، لم يهتم بذلك إطلاقاً.

- في 6 أكتوبر دعته زوجته إلى المطعم، اكتشف الزوجان أن علاقتهما الزوجية ليست على ما يرام بسبب التّدخين طبعاً.

- بادرته فلورانس قائلة:

- لو أخبرتك بنبأ يفرحك بمناسبة عيد ميلاك القادم أتعدني بالكف عن التّدخين فوراً؟

هذا تهديد، وأنا لا أقبل التهديد! أخبريني إذن؟.

- يجب أن تعدني أولاً.

- سوف أفاجئك لو قلت لك: إن التّدخين قد ولّى وأصبح من الماضي، أنا لست راضياً عن نفسي؛ لأني خفضت من عدد السّجائر اليومية، وبالرغم من ذلك لا أشعر بالتحسن، فالسعال يرهقني أكثر فأكثر ويعيق عملي، عندما أسعل في الصباح عند تناول أول سيجارة فهذا يبدو لي طبيعياً؛ نظراً للمواد السامة التي أبيعها، أما أن أسعل طول النهار فهذا أمر خطير ويزعجني كثيراً، هذا يذكرني بالأيام الأخيرة لمعاناة والدي قبل أن يتحرر من عبودية السّجائر، أظن أني سأصاب بالربو، منذ رجوعنا من العطلة الصيفية فقدت 4 كلغم، وأكاد أفقد نفسي باستمرار، بالرغم من أن السّجائر ربما ليست هي المتسببة في كل هذا، لقد قررت التوقف عن التّدخين، بما أنه لا يوجد برنامج خاص بإيقاف التّدخين في الشركة فسوف أقوم بتجربة وحدي دون أي مساعدة ما عدا مساعدة والدي، فهو يقول: إنه تعافى من السعال بعد الكف عن التّدخين، ربما ينفعني ذلك أيضاً، صرخت فلورانس قائلة:

- حسناً! هذه أجمل هدية قمت بتقديمها لي، هذا شيء إيجابي، سوف نرى كيف تكون في عيد ميلادك الرابع والعشرين؟ ماذا سيحدث؟

- سوف نكتشف لعبة الرسائل المجهولة.

- لقد نسيت هذا الملعون ليس هذا ما أقصد.

- سوف نسافر من جديد، ربما سوف نرحل أو نربح في لعبة اللوتو.

- لا، لا، سوف نصبح أربعة.

- قام أبو (أورور) بسرعة البرق وراح يعانق زوجته، وهي جالسة على الأريكة المقابلة، تناول الاثنان كأسين من ماء الصحة الغازي للاحتفال بالخبر.

- في 7 أكتوبر جاءته مكالمة هاتفية من الطبيب المعالج للتدخين؛ ليوجه له بعض الأسئلة ويعلن له البرنامج الذي أعده له. قرر الاثنان أن يتقابلا بعد الغد، يبلغ هذا الدكتور الثلاثين من العمر لكنه يرتاح إليه أي واحد يقابله، فكانت المقابلة مريحة جداً، بعد مراجعة الأسئلة التي وجهها إليه بالهاتف سلمه سلسلة من الاختبارات، وبعد التأكد من تصميمه على التوقف سأله عن بداية تدخينه وعن سلوكه قبله وبعده وعن اللذة التي يجدها في التّدخين، كما سأله عمن سبقه من أهله في التّدخين، ثم سأله عن قلقه المتزايد، وبعدها أمره بفتح فمه وفحصه ثم فحص عينيه وفحص أول أظلاله، وبعد وزنه قام بقياس ضغطه ودقات قلبه ونسبة أحادي أكسيد الكربون المتصاعد من تنفسه، ثم أخذ يشرح له فوائد التوقف عن التّدخين.

لو كانت سيارتك تحتوي على النسبة نفسها (38) من ثاني أكسيد الكربون التي يحتويها نفسك لرفضت في الفحص الدوري، لو فحصك طبيب شؤون العمل لأوقفك عن العمل فوراً.

قام بتزويده ببروتوكول لتخليصه من التّدخين ويسمح له فوراً بالتخلص من الرغبة في التّدخين، ثم شرح له أضرار هذا التّدخين على جسمه، بعد أن أعطاه التعليمات والتوجيهات اللازمة الخاصة بهذا البروتوكول، اكتشف أبو (أورور) ومن خلالها كيف يقاوم الرغبة في التّدخين، وكيف يكيّف سلوكه الجديد. قام الطبيب

بتزويده أيضاً بملف مكمل لعلاجه، وطلب منه قراءته والاستماع إلى الشرائط المرفقة له، كما زوده بمستندات التأمين الصحي لتسليمها إلى الشركة؛ لتسهم في تحمل نفقات العلاج، وطلب منه أيضاً مراجعة الطبيب المعالج في أقرب وقت لعلاج السّعال.

كان أبو (أورور) هادئاً جداً، فهو يقترب من الدخول إلى نادي غير المدخّنين.

ذهب أبو (أورور) إلى طبيبه في 18 أكتوبر، في العادة كان طبيبه يستقبل مرضاه لمدة وجيزة، واليوم كان استقباله لأبي (أورور) أطول من العادة، عشرون دقيقة بالضبط، شكره أولاً على هذا الحدث العظيم وشجعه على المواصلة، لكن الطبيب لاحظ أن سعاله المتواصل أصبح مصحوباً بنقاط من الدم في البصاق، وضيق في التنفس وبداية تصفير في الصدر، ولهاث سريع، بالإضافة إلى بحة في الصوت وألم في الكتف وضعف عام ونقص في الوزن، كل هذه العلامات لا تبشر بالخير؛ لأنها ليست من علامات شاب عمره 23 سنة، زيادة على هذا لقد أصبح يشتكي من آلام في القفص الصدري، قام الطبيب بجس نبض رقبته والبحث عن الأضلاع التي تؤلمه، فلاحظ تورماً في القفص الصدري، وقام بالضغط على الوريد الرئوي الأعلى، وسأله:

- هل سبق لك العيش في مكان تنتشر فيه المواد الآتية: الأميانت والأرسنيك، والسليس، والبرليوم ومشتقات الكروم، والنيكل والقطران ومادة الرادون والإثير وهيدروكربون البولسيليك.

- لا، لا، ولكنني حضرت بعض التجارب عند الزبائن، كما شاركت في تجارب أخرى في مختبر الجامعة.

- طيب، طيب وما عدا مشكلاتك التنفسية، هل لاحظت شيئاً آخر؟ فكر أبو (أورور) لحظة ثم قال وكأنه يعترف بشيء كان يخفيه.

- لقد لاحظت انخفاضاً كبيراً في علاقتي الجنسية، وأحياناً أشعر أن زوجتي تستحق كل التقدير، ولكن أطمئنك، إننا ننتظر مولوداً ثانياً.

- هذا ليس خطيراً بخصوص الانتصاب سوف تتحسن حالتك بمجرد إقلاعك عن التّدخين، ولا تحتاج إلى أي دواء، إن التّدخين يدمر أي نظام معقد بما في ذلك النظام العصبي المركزي، والهرمونات ونظام الدورة الدموية الخاصة بالقلب... إلخ، إنك مصاب بانسداد الأوعية الدموية مما يؤثر على الدورة الدموية. أما بخصوص مشكلات التنفس فسوف أرسلك فوراً إلى الطبيب المختص في المستشفى، فليس هناك وقت للانتظار، أليس كذلك؟

دون أن ينتظر موافقته تناول السّماعة وحدد موعداً في يوم الإثنين القادم على الساعة الثامنة صباحاً، فهي الساعة الوحيدة المتبقية للمواعيد مع الطبيب، فيجب أن يحضر إلى المستشفى، وهو صائم.

كان أبو (أورور)، صامتاً لا يتكلم غير قادر على التحرك من كرسيه، وكأنه تم تثبيته عليه، كان يفكر كيف سيدخل إلى المستشفى لإجراء الفحوصات اللازمة؟ استطاع أخيراً أن ينهض، فشكر الطبيب على المقابلة وانصرف، عند رجوعه إلى البيت وصف لزوجته المقابلة مع الطبيب بالمطمئنة؛ حتى لا يزعجها بمشكلاته الصحية، وفضل التحدث أكثر عن إقلاعه عن التّدخين، غير متيقن من ذلك، لكنه في الطريق الصحيح.

الفصل 25

في يوم الإثنين 21 أكتوبر حضر أبو (أورور) إلى المستشفى عند الساعة الثامنة صباحاً وهو صائم، كان فرع الأمراض الصدرية والرئوية يتربع على أفخم مكان في المستشفى، لاحظ أن أغلب الممرضات لا تتمتعن بالشباب، بل أكثرهن متقدمات في السن، فقال في نفسه: ربما تتمتعن بوافر من الخبرة، ولاحظ لوحة كتبت عليها الاختصاصات وأسماء الأطباء، مختصو أمراض صدرية، مختصو أمراض رئوية، وتخدير وغير ذلك، عرف أن فرع العلاج البيولوجي هو الذي يقوم بفحص الخلايا المستخلصة من البايوبسي لتحديد طبيعة المرض ومواصفاته، كان أطباء الأشعة وأطباء التخدير وأطباء العلاج الطبيعي في انتظار الفحوصات، وكان من بينهم أطباء نفسانيون ومختصات اجتماعيات، كل يترقب فحص أبي (أورور).

بعد الإجراءات الإدراية تم استقبال أبي (أورور) بحفاوة زائدة من قبل طبيب مختص في الأمراض الرئوية، هو الطبيب (لابانيير)، استأنس أبو (أورور) من هيئة هذا الطبيب الأنيق ببدلته الفاخرة دون ارتداء الزي الأبيض الخاص بالأطباء، بدأ الطبيب يوجه له الأسئلة وبعمق، ثم قال له:

- ما رأيك؟

لم يجب أبو (أورور) فسأله الطبيب من جديد.

- لو كنت تعاني من التهاب حاد كانت حرارتك عالية، أما السعال فليس ضرورياً إنه علامة السّل، أو السرطان، لكنها فرضية محتملة، ليتضح الأمر، فلابد من إجراء

العديد من التحليلات الضرورية، فلنبدأ وبسرعة، لابد من إجراء فحص القصبات الهوائية، ثم عمل تصوير للرئتين، ولتكملة هذا وذاك يجب عمل صور للمخ والكبد.

- سوف أراك يوم الأربعاء في الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر؛ لنقوم معاً بتحليل كل هذه الفحوصات ومناقشتها.

كاد أبو (أورور) يفقد وعيه من شدة المقابلة، كلمة سرطان كادت تخدره، تمتم أبو (أورور) بما يأتي:

- يمكنكم إعطائي أي دواء لمساعدتي؟

- مساعدتك على ماذا؟

- للتقوية مثلاً، لتحمل السّعال لا أدري!

- طبعاً، طبعاً لكن طالما لم نتعرف بعد على المرض، فلا داعي لإعطائك أي دواء، أما الدواء لإيقاف السعال، فهو يسبب الإمساك، فلا داعي لإضافة مشكلة جديدة.

نظر إليه الطبيب نظرة صريحة، ثم مدّ له يده اللطيفة وطمأنه بابتسامة عريضة جعلته يغادر بشيء من الأمل، بعد أن أخذ منه أحد الأطباء عينة من الدم وكمية من البصاق، جاءت ممرضة وأدخلت في أنفه أنبوباً (أندوسكوب) لفحص القصبات الهوائية. كانت هذه العملية مزعجة ومؤلمة، عندما دخل لغرفة التصوير أحس كأنه يدخل التابوت المخصص للموتى، هذه هي بدلته الخشبية كما يحلو له القول.

عند الساعة الثانية وعشر دقائق يوم الأربعاء 23 أكتوبر حضر إلى المستشفى، كان الطبيب لابانيير يرتدي بدلة بيضاء هذه المرة، استقبله في مكتبه كالمعتاد دون ابتسامته المعتادة.

أمامي النتائج وسوف نقوم بمناقشتها وشرحها: الفحص السيتولوجي موجب، فحص الصدر بالأشعة والفايبروسكوبي أيضاً موجب، تصوير الكبد أيضاً موجب.

- قال أبو (أورور) بصوت خافت:

- إذن كل شيء على ما يرام كما يبدو!

- أنا لم أقل ذلك، عندك سرطان في الرئة.

- لا يا دكتور هذا مستحيل لابد أنك قرأت ملفاً آخر غير ملفي!

- للأسف، هذه هي الحقيقة.

أخذ الدكتور مجسماً من فوق مكتبه، وبدأ يشرح بهدوء المعلومات الواردة من تحليل الأشعة، أشار أولاً إلى الأجزاء الثلاثة المكونة للرئة اليمنى، ثم أشار إلى اثنين من الرئة اليسرى، ثم أشار إلى موقع القلب، قام فيما بعد بشرح مفصل عن القصبات الهوائية، ثم عرفه على موقع الورم، لقد أصاب القصبة الهوائية، ثم وضّح مدى حجمه، ووصف له أيضاً بعض التشعبات التي تشبه الدهليز والتي تقع بين الرئتين وتحتوي على كل من القلب والقصبات الهوائية والشرايين والأوردة والمنشور والمريء والغدد اللعابية، وهذه الأخيرة مشكوك فيها أيضاً.

أوضح الطبيب أيضاً أن تصوير الكبد أظهر كذلك بعض الشكوك.

- الحمد لله أن الجهة الملاصقة للكلاوي سليمة، وهذا ما يجعلني متفائلاً شيئاً ما.

منذ أن سمع مصطلح سرطان بدأ أبو (أورور) وكأنه يغلي، غلياناً داخلياً بالطبع، كان يستمع إلى شرح الطبيب وقوته تنهار. كان تائهاً ومخدراً وكأنه فقد الذاكرة، أما الطبيب فكان هادئاً؛ لأنه يريد أن يفهمه أن يتفهم حالته، لهذا استرسل من جديد في شرح بعض الأشياء التي سبق شرحها، حتى شعر أن أبا (أورور) استوعب كل شيء.

- أنا آسف وقلق في الوقت نفسه، لتكملة أبحاثنا يجب أخذ عينة من المخ، سوف نقوم بإجراء (بايوبس) على مستوى الحدبة الحرقوفية، ثم تخضع إلى عملية

تخدير كامل، أريدك أن تعرف أن نهاية التخدير ستكون مصحوبة بآلام شديدة، لكن هذا ضروري.

تأكد الطبيب أن هذه العملية يمكن إجراؤها في اليوم نفسه.

- خبر جيد سوف تبقى بالمستشفى، هذا هو البرنامج: اليوم نأخذ عينة من المخ وغداً تستريح، ويوم الجمعة عند الساعة العاشرة وأربعين دقيقة نتقابل من جديد هنا للتعرف على النتائج ثم تعود إلى بيتك، أتريد أن أكلم زوجتك وأخبرها بذلك أو والديك؟

لا، لا، شكراً، لقد أحببت كثيراً طريقتك الواضحة في شرح حالتي. أشكرك كثيراً على أنك أطلعتني على الحقيقة، كما أشكرك على نوعية تعاملك معي، أما زوجتي فإنه لا تزال هناك تحاليل قد يكون لها تأثير على تشخيص المرض، فلا داعي لإزعاجها حالياً، سوف أخبرها بأني سوف أبقى بالمستشفى لإجراء تحاليل تكميلية، يجب ألا أصدمها إنها حامل.

- أنا أتفهم ذلك: أما من ناحية عملك، فسوف أمنحك أسبوعين من الراحة.

غادر أبو (أورور) الطبيب لإكمال المرحلة الأخيرة من التحاليل، فرجع إليه الأمل بعد أن كاد يغيب، أسبوعان من الراحة فقط، إذن ليس هناك خطورة كبيرة، ولكن بعد دقائق قليلة انحطت معنوياته من جديد، عادت الاضطرابات، والهواجس وغزت مخه من جديد.

كيف يحصل هذا؟ لي 23 سنة من العمر ويصيبني سرطان الرئة، هذا مرض يصيب عادة كبار السن الذين لا يقل عمرهم عن الخمسين، ربما هو سرطان حميد، وقد تؤكده الفحوصات القادمة، بالرغم من هذا البصيص من الأمل فأنا مريض، هل هذا عقاب من الله سبحانه وتعالى أو نتيجة هذه الرسائل اللئيمة، أو من لعنة برومرتيم؟ وهل فعلاً السّجائر هي السبب؟ ولماذا أنا بالذات وفي هذا التوقيت؟ ماذا ينتظرني أنا وفلورانس و(أورور)، والمولود القادم وأمي وأبي وأختي ليتيتيا وأخي بونوا؟ هذا غير عادل ولا أقر به.

ثار أبو (أورور) وانتفض وهاج ثم تراجع وسكن وقال في نفسه:

- يمكن أن أشفى، لابد أن أشفى، سوف يخبرني الطبيب عن إمكانية شفائي من عدمه، وما هو دور الطب في ذلك؟ أنا على استعداد لمواجهة المرض، وما ينتج عن ذلك من آلام، ولكن هل هناك آلام أصلاً؟

قام أبو (أورور) بالاتصال بزوجته ووالديه؛ ليخبرهم بوجوده بالمستشفى، وأخبر الشركة التي يعمل فيها أيضاً، أخضعته زوجته إلى وابل من الأسئلة، فباح لها بالحقيقة المرة، سرطان الرئتين، فامتلكها الشك، سلمت ابنتها إلى أمها، وذهبت مسرعة إلى المستشفى. لحق بها أبو زوجها وأمه، كانت الأم منهارة؛ لأنها كانت تعرف سلفاً أن كل بلاء العالم ومشكلاته تأتي من مصانع السّجائر، وكانت تشعر أيضاً أن ابنها مهدد قبل الآخرين، أما الأب فكان يحاول كتمان انفعاله، متسائلاً عن وضعه كمدخن سابق، حاول أن يقنع من حوله أن ما تبقى من الفحوصات ما هو إلا شيء روتيني يتم إجراؤه لكل مريض؛ لذا لا يجب الاكتراث والخوف، بالرغم من تفاؤل الأب كان الجميع في بالغ التأثر، يتخللهم مزيج من الغضب والحزن والخوف، قرر الثلاثة أن تكون فلورانس هي أول من تدخل على زوجها، يتبعها الأبوان إذا أمكن، اتفقوا أيضاً على عدم إزعاجه بالبكاء وعدم محاولة طمأنته بابتسامات كاذبة، هذه كانت وصيتهم الأخيرة، تابع الأب مستشهداً بمثل صيني:

- إشعال شمعة صغيرة أفضل من لعن الظلام.

دخلت فلورانس على زوجها، فاستقبلها بهدوء، وكأنه غير مكترث بما يحصل له، تعانق الاثنان بعنف، وبعد هدوء العاصفة أخذ يشرح لها حالته، فقالت الزوجة:

- يمكن أن ندعو والديك للتكرم بالدخول.

- طبعاً، طبعاً ليس هناك بيننا وبينهم أسرار.

تفاجأت فلوراسن بوجود أبي زوجها في محادثة مع أحد الأطباء، دخل الأبوان على ولدهم فخف ألمهم عند رؤيته مبتسماً ماسكاً بيد زوجته في يده، أخبرهما بما قاله الطبيب لابانيير وطمأنهما بخروجه يوم الجمعة.

- إذا كنت ترغب في ذلك يمكن لزوجتك البقاء معك حتى يوم مغادرتك، فسوف نعتني بـ (أورور) حتى ذلك الحين، أما بخصوص عملك فسوف أقوم بتزويدهم بالمستندات الطبية اللازمة؛ لنخرج جميعاً من هذه المعركة مرفوعي الرأس، كل الناس يعرفون أن من يواجه المرض بشجاعة حليفه النصر. نحن نعرف جميعاً إرادتك وشجاعتك وأسلوب تفكيرك الذي يتسم بالإيجابية، أنت تعرف أيضاً أن الجو في هذا المستشفى من أحسن الأجواء نوعية، لقد تحدثت قليلاً مع الأطباء الذين سوف يتابعونك، فعبروا لي على أن مهمتهم لا تقتصر على المتابعة فقط بل التعبئة الكاملة والدائمة.

عند الساعة العاشرة وأربعين يوم الجمعة استقبله الطبيب وحده، وكان يرتدي بدلته الرسمية كالعادة.

- لي خبر جيد: فحص المخ كان سليماً، لكنني لازلت أخشى بقية الفحوصات، هل تريد أن أصارحك بكل شيء، بما في ذلك أشياء قد تؤلمك كثيراً؟

- نعم، أريد ذلك بالرغم من أني متأكد من أنها ليست بالخطيرة. تناول الطبيب مجموعة من الصور وضعها تحت النور وأخذ يوضحها له بالتفصيل وبكل صراحة.

ترى هنا هذه الكتلة اللحمية التي تغطي القصبة الرئيسة للرئة اليمنى، فهي التي تؤثر على الرئة نفسها، هذا سبب سعالك، الغدد المصابة والمريضة توجد هنا حول الرغامى، الصور التي تم عملها بالفايبروسكوبي لا تدع مجالاً للشك: إنه فعلاً سرطان.

بعد التلفظ بكلمة سرطان سكت الطبيب برهة من الزمن، ثم تابع:

- ماذا تتصور أنت؟

شعر أبو (أورور) باختناق لكنه تمتم قائلاً:

- أنت متأكد من ذلك يا طبيب؟ أنت متأكد أنه سرطان الرئة؟ في سن 23 سنة، هذا مستحيل!

- للأسف هذه الحقيقة، بعد أخذ عينة من مخك قمنا بأخذ عينة من داخل القفص الصدري عبر الفتحة الصغيرة التي تراها في صدرك، هي عينة لبعض الأنسجة التي قمنا بتحليلها لتحديد نوعية السرطان، فاكتشفنا نوعاً من السرطان ذي خلايا صغيرة يصفه الأطباء بسرطان حبيبات الشوفان، وسببها عندك هو التّدخين، هل يمكن إعادة ما شرحته لك؟ وأي نوع من السرطان هو؟

- أجاب أبو (أورور) بدقة وحدّد حتى المتسبب.

- لدي معلومات أخرى أريد أن تعرفها، بعد تصوير الكبد قمنا بأخذ عينة من الكبد والغدة الكظرية، بعد تحليلها لم نجد أي خلايا سرطانية، أتعرف ما هي هذه الخلايا؟

- ثم قال الطبيب: أنت لست في حالة جيدة لشرح ذلك، سوف أشرحها لك.

هي أجزاء من الأورام تتسلل عبر الدم؛ لتتمركز حيث تجد الجو الملائم، إذن فهي عبارة عن ورم في بدايته بالنسبة للسرطان الموجود عندك، فهو غير قابل للعملية، فيجب معالجته بالعلاج الكيميائي، هذا النوع من السرطان ينمو بسرعة ويتطور بسرعة؛ لحسن حظك فهو من النوع الحساس للعلاج الكيميائي، هل يمكن لي الاستمرار في شرح العلاج أم نترك هذا لجلسة قادمة؟

- لا، لا أكمل من فضلك يا طبيب.

- ماذا تعرف عن العلاج الكيميائي.

- أعرف أنه يسبب تساقط الشعر، ولا يطاق، وأن هذا العلاج لا ينفع في كثير من الحالات.

- سيدي العزيز، فرع أمراض الرئة هذا ليس بمحرقة للنازية؛ لأن العلاج الكيميائي يقضي على الخلايا السرطانية، وهي في حالة تكاثر.

إن هذه الخلايا تتميز بالتكاثر بسرعة عن طريق الانشطار، وبصفة خاصة الخلايا الموجودة لديك، بإمكان أي خلايا أخرى غيرها أن تتكاثر ولكن بسرعة أقل،

فعندما تتكاثر الخلايا السرطانية تقوم بمهاجمة بصيلات الشعر فتسبب تساقطه، يمكنها أيضاً أن تهاجم الكريات الدموية فتسبب لك تعباً وفقر الدم، أما مهاجمتها للفم، فيسبب التهاب اللسان والشفتين، ومهاجمتها للمعدة يسبب الإسهال، يوم الإثنين على الساعة الثامنة صباحاً نبدأ بأول حقنة عبر الوريد، ولا تعود إلى البيت إلا الساعة الثانية بعد الظهر، وفي الغد سنقوم بالعملية نفسها، أما يوم الأربعاء فلا تمكث عندنا إلا ساعة واحدة.

وتبدأ أول مراحل العلاج الكيميائي، وذلك بأن أقوم بعمل برنامج أعده مع طبيب مختص، سوف يتابعه بعناية، وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع سيحدد قابليتك للعلاج من عدمه، وبموجب النتائج التي يحصل عليها يقوم بإجراء التعديلات اللازمة.

الطبيب لاكروا طبيب ممتاز، فهو أحسن من يقوم برعايتك في هذا المستشفى، ألاحظ يا سيدي، أن التّدخين تمكن من العديد من الشباب، لقد تعرف كل المستشفى على حالتك، هنا سوف نقوم بعلاجك أحسن من أي مستشفى في العالم، إنك حالة استثنائية؛ لأنه لا يمكن تقديم الرعاية نفسها إلى كل المرضى الذين يقصدون هذا المستشفى، أؤكد لك أننا سوف نعمل المستحيل؛ كي لا تلتحق بضحايا بورومروتيم الكثيرون، أنت تعرف مكتبي، فهو مفتوح لك في كل أوقات وجودي بالمستشفى، سوف أرسل غداً تقريراً إلى طبيب العائلة، وسوف أبقى على اتصال دائم معه.

يوم الإثنين 28 نوفمبر 2002م الساعة الثامنة صباحاً فتح أبو (أورور) صفحة جديدة من تاريخ مصيره، إذ الطبيب الذي سيتولى أمره أصبح مختصاً في العلاج الكيميائي بعد أن أكل الدهر وشرب على شهادته في اختصاص السرطان، فالمستقبل أمامه؛ لأن له أربعين سنة من العمر فقط، حضر أبو (أورور) فاستقبله الطبيب لاكروا وجلس بجانبه وأمسك بذراعه وأخذ يسرد عليه ما قص عليه الطبيب لابانيير من قبل، شرح له أنه خلال أربع عشرة سنة من الدراسة في الجامعة لم يعلِّمه أحد كيف يخاطب مرضاه، وكيف يحدثهم، ولا كيف يواسيهم،

بالرغم من هذا فهو يحاول بكل ما يملك من كلمات وابتسامات أن يجعل من مريضه شخصاً متعاوناً وحليفاً للقيام بمهمته على أحسن وجه، عرف أبو (أورور) أنه أصغر مريض يصاب بالسرطان بأوربا، وربما أصغر مريض بسرطان الرئة في العالم، وأصغر ضحية للسّجائر أيضاً، سنة 2001م تم تشخيص حالة سرطان مماثلة عند امرأة عمرها 30 عاماً، وقد تم الإعلان عن حالة من قبل لشخص عمره 27 سنة، تملك أبو (أورور) خوف شديد، أراد أن يعرف ما كان مصيرهما، لكن الطبيب تابع:

- إن الأطفال يتنفسون بسرعة أكبر من الكبار، ويستنشقون بسرعة أكبر أيضاً، وبما أن جسمهم غير متكامل، ولا زال في نمو مستمر فدخان السّجائر يتسلل إلى داخلهم بسهولة، لابد أنك تعرف ذلك.. سوف نبدأ أول مرحلة من العلاج الكيميائي، سوف يريحك هذا العلاج بإيقاف انتشار الخلايا السرطانية إلى بقية الجسم، كما يقلل من نمو الخلايا السرطانية الموجودة، نتمنى ذلك. كما نتمنى لك الشفاء العاجل، وسوف نراك باستمرار عند الضرورة أيضاً، وعندما ترغب فنحن في انتظارك. أنت تعرف أن كل من في المستشفى مجند لخدمتك، أنا أعدّ نفسي اللواء والقائد العام لخوض هذه المعركة معك وكسبها إن شاء الله، وقبل إعطائك الحقن الكيميائية سوف أقدم لك السيدة بوتون، هي طبيبة في علم النفس ممتازة ومتخصصة في معالجة مرضى السرطان، سوف تقوم بمساعدتك أيضاً، أنت تعرف أن المواد التي سوف يتم حقنها لك الهدف منها هو القضاء على الخلايا السرطانية، في أي مكان من جسمك، إن مفعولها يشبه مفعول مبيد للأعشاب الضارة التي تنمو بسرعة، وسوف تهاجم هذه المواد الخلايا السرطانية أولاً، ثم للأسف ستهاجم الكريات الدموية، وخلايا الجهاز المعوي وخلايا الشعر مثل ما أخبرتك من قبل، سوف تفقد شعرك وكل الشعر الذي يكسو جسمك، وسوف ينمو الشعر من جديد بعد التوقف عن العلاج الكيميائي، سوف نقوم بإجراء تحليل مستمر لدمك، سوف نعمل المستحيل للمحافظة على توازن الكريات البيضاء والحمراء، إذا اضطرنا الأمر، فسوف نزودك بحقن (E.P.O) التي يحقن بها المتسابقون، قد يحدث لك غثيان

واستفراغ، بموجب ملاحظاتك يمكن تعديل العلاج لتجنب أي ضرر قد يؤذيك. لا تتزعج إذا شعرت بتهيج في فمك وحلقك، ربما يصيبك التهاب حاد في اللسان والشفتين وربما يسودّ لسانك، لكل شيء حل يجب مراقبة عملية الهضم بعد الأكل، ربما يحدث لك إمساك أو إسهال فهذا وذاك له علاجه أيضاً، عند ارتفاع درجة الحرارة يجب إبلاغنا فوراً، ابتعد عن أي مريض قد يسبب لك عدوى، والأفضل أن تلقح ضد النزلة البردية، قال أبو (أورور) بكل هدوء:

- لقد قطعت شهيتي.

- أنا أتفهم ذلك، لكن من الضروري أن تأكل؛ لتحافظ على وزنك، كُلْ أي شيء تحبه، وخاصة الفواكه، واللبن الزبادي، الياغوت والمثلجات، أما الشرب فيستحسن أن تتناول مشروبات غازية؛ لتساعدك على الهضم، إذا لاحظت أن بعض المأكولات تبدو لك مُرة أضف لها كمية من السكر، يمكنك أيضاً تناول كأس من النبيذ يومياً مع الأكل، ابتعد عن الأماكن التي تنتشر فيها الروائح. أعاد أبو (أورور) كل ما قاله الدكتور فأحس كأن معدته انسدت، بالرغم من ذلك استطاع أن يسأل:

- ما هي الفوائد الملموسة من كل هذا؟

- خلال شهر أو شهرين سوف تشعر بزوال التعب إن شاء الله.

- سوف يخف السعال أيضاً، ويتحسن تنفسك وتخف آلامك.

-هذا ما يحصل بالعادة، وربما لا يحصل:

إذا أبديت مقاومة للعلاج فسوف نغير من الكميات المحقونة، وحتى نوعية المواد وقد نغير المدة الزمنية بين مرحلة وأخرى. لعلمك فإن الطب ليس من العلوم الدقيقة، ونعالج كل حالة بانفراد عن الحالة الأخرى، فالطب إذن يحاول والشفاء بيد الله.

- ومتى يمكنني العودة إلى العمل؟

هذا مهم بالنسبة لك، أليس كذلك؟ هذا طبيعي بالنسبة لشخص مثلك بدأ حياته بنجاح سريع، سوف نتكلم في هذا الموضوع بعد شهر، وفقاً لنتائج العلاج، من اليوم فصاعداً اعتبر نفسك في إجازة، يمكنك مخاطبة الشركة التي تعمل فيها وطلب تخفيض دوام عملك إلى النصف مثلاً، هناك احتمال أن نطلب منك الكف عن قيادة السيارة مؤقتاً، أظن أنك غير مستعجل للعودة إلى مصانع السّجائر أليس كذلك؟

- هل العلاج الكيميائي لا يتم إلا بالمستشفى؟

- لا، لا أظن أنه بالرغم من حسن معاملتك، فأنت تريد التهرب منا، فسنقوم ابتداءً من الغد بتخديرك تخديراً محلياً في غرفة لحقنك عن طريق الجلد؛ لأن ذلك أسهل من حقنك عن طريق الوريد، وذلك سيتم بالمستشفى، ويمكن أن نتفق معاً على أن يتم إجراء بقية العلاج بالبيت، وسنكلف ممرضة بالقيام بهذه المهمة، لكن يجب الحضور إلى المستشفى لتلقي الجزء الآخر من العلاج ثم العودة إلى البيت، وسوف أراك يومياً وبانتظام.

- إلى متى سيدوم العلاج الكيميائي؟

- الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة كما يبدو لك، يمكن أن يدوم ستة أشهر، ولكن ذلك مرهون بفعالية العلاج.

- لم نتكلم بعد في موضوع الألم.

- العلاج الكيميائي لا يسبب أي ألم، هل لك أسئلة أخرى؟

- لا، لا ليس لدي الآن، لكنني خائف.

- سوف تقوم الطبيبة بوتون بمساعدتك على مقاومة الخوف، والسيطرة على كل انفعالاتك، بالنسبة لي سوف أتغيب اثني عشر يوماً لحضور مؤتمر طبي بالولايات المتحدة ومن ثم العودة، قد أحضر من هناك أدوية أو علاجات جديدة وآخر التطورات وآخر الآمال.

- غادر الطبيب لاكروا بعد أن عرّفه على الطبيبة بوتون، وطلبت منه الجلوس، فجلس الاثنان على كرسي من السعف المريح ، كان أبو (أورور) على وشك البكاء، لكنه استطاع أن يتلفظ قائلاً:

- أنا خائف من هذا المرض، خائف من أي فحوصات مستقبلية، خائف من العلاج الكيميائي ومن المستشفى نفسه، خائف من الموت، خائف على زوجتي وابنتي وأمي وأبي.

- هل تريد أن أجري معهم مقابلة؟

- لا، لا سوف أتكفل بذلك بنفسي.

- ممتاز هذا أول دليل على شجاعتك وقوة التحمل.

- هذا غير معقول سرطان لشاب له من العمر 23 سنة، إضافة إلى أن المتسبب هو السّجائر، كنت أعرف منذ أن كان عمري 9 سنوات أن التّدخين خطير، إنها غلطة العمر.

- بإدانتك لنفسك سوف تزيد من معاناتك، وقد تهاجمك العديد من الأفكار السلبية، والشكوك، والاضطرابات والقلق فتسهم في انهيار معنوياتك، كل ذلك سوف يؤجج خوفك، أنت ذكي وعلمتك دراستك وتجربتك في الحياة أهمية الأفكار الموجبة والبناءة، هذا مهم جداً؛ لذا أطلب منك أن تكون متفائلاً وتنظر إلى كل ما هو إيجابي في حياتك.. فكر في نجاحك العائلي، ونجاحك في عملك.. بعد التفكير في كل هذا قم بالتركيز على كل ما هو واقعي وملموس، عش ليومك ولا تكترث بما سيحصل غداً. إنك تحب القراءة كما سمعت؛ لذا اقرأ كثيراً، سوف تجد في القراءة مادة دسمة، بالإضافة إلى تغذية الذاكرة سوف يتضح من خلال القراءة كل شيء إيجابي في حياتك. حاول أن تقرأ كل ما هو إيجابي ويمكنه مساعدتك في التعامل الإيجابي مع كل من يتعامل معك في المستشفى، لقد تعرفت على بعض الأطباء ذوي الاختصاص، وسوف تتعرف على آخرين إن شاء الله.

تابع السلوك المثالي نفسه الذي سلكته مع الطبيب لاكروا، أنت تعلم أن كل من يعمل بالمستشفى يتعرض لضغط كبير من جراء المسؤوليات المنوطة به، لقد أصبحت الولد المدلل الذي يحمل لواء مكافحة التّدخين، سوف يعمل كل من يحيط بك المستحيل من أجل إخراجك من هذه الأزمة، بالرغم من مأساتك فأنت من المحظوظين، نحن لا نبخل عليك بأي شيء، اسأل ونحن نجيب، لا تتردد في أن تصبح طبيب نفسك، سوف يساعدك ذلك في فهم العلاج وتقبله بسهولة، وسوف يعد ذلك من الإيجابيات ويبعدك عن كل ما هو سلبي، إني أخاطبك بأسلوب مباشر قريب من أسلوب الأم لولدها.

أنا هنا قريبة منك؛ لأستمع إلى كل الأسئلة التي قد توجهها إلي، وسوف تصلك إجاباتها، أنا هنا لمساعدتك في تحمل مرضك وتحمل أعراضه الجانبية والنفسية خاصة، أنا هنا لأساعدك على تحمل العلاج الكيميائي، كل من يعمل بالمستشفى مجند في سبيلك، وكل الأدوية مسخرة لعلاجك، وكل من ترى حولك من حلفائك، كل هؤلاء موجودون من أجل الدفاع عنك ومحاربة العدو معك وتحقيق النصر إن شاء الله.

قم بالدعاء لهم واشكرهم على ما يفعلون من أجلك، أطلب منك أيضاً تدوين كل أحاسيسك وما يعتريك من خوف وقلق وأرق وما يراودك من أسئلة طبية أو سيكولوجية أو حتى تلك التي تتعلق بالوجود أصلاً، كل هذا قد يسهم في رفع معنوياك وتحفيزك على مواصلة المعركة.

بعد هذا قام الاثنان بطرح الأسئلة والأجوبة بالتناوب حتى قدوم الممرضة التي ستتولى مهمة العلاج الكيميائي، قبل مغادرته المستشفى قام بإجراء مكالمة مع زوجته؛ ليخبرها بأنه سوف يعانقها بعد 5 ساعات من الآن، الوقت يداهمه لذا لم يجد الوقت لمراجعة نفسه.

طلبت منه الممرضة الجلوس وأخذت تشرح له مزيج الأدوية التي سوف يتم حقنها بجسمه وتتكون من: مادة البلاتين والفيبسيد والسيكلوفوسفاميد،

والإنتراسكلين والألكالويد وغير ذلك من المواد الأخرى، كل هذا لا يشجع على ابتهاج الجلد، سألته بعد ذلك إن كان شرحها سهلاً ومفهوماً، وهل لديه أسئلة حول ذلك، كل شيء يبدو له واضحاً سهلاً وجلياً، فهو مستعد للحقنة، قامت الممرضة بحقنه عبر الوريد ووعدته أن تكون الحقنة القادمة في الغد عبر الجلد، تجنباً لأن تصبح أوردته مثل المصفاة.

بعد دقائق أحس أبو (أورور) أنه منهار، أحس بغثيان ثم استفرغ، كان يعرف ذلك لكنه فوجئ بسرعة الانفعال، كان سعيد لأن فلورانس لم تشاهد هذا المشهد الذي لا يحسد عليه، هناك مرضى آخرون يشاركونه الإحساس والمعاناة نفسيهما، هناك من يقول: لقد انتهينا.. كان أبو (أورور) سعيداً أيضاً لأن زوجته لا تسمع هذه الآهات اليائسة، سعيداً أيضاً لعدم حضورها هذه المشاهد التي تؤثر سلبياً عليها وعليه وتقلل من احتمال شفائه.

طلبت منه الممرضة استخدام خوذة مثلجة 4 درجات مئوية للتخفيف من تساقط الشعر، كما طلبت منه أن يحلق رأسه على الصفر، لكنه رفض.

خلال مدة العلاج كان أبو (أورور) يفكر كيف يواجه هذا العلاج بالشجاعة الكافية.. والتمكن منه، سوف يستعين بأهله وأصدقائه حتى أولئك الذين اختفوا منذ مدة لم لا؟ سوف يتحمل كل شيء ويطبق كل التعليمات دون تردد. سوف يتعامل بجدية مع طبيبة علم النفس؛ ليجنب زوجته أي إزعاج. كان سعيداً لأن زوجته وأمه وأباه لم يحاولوا أن يتصرفوا معه إلا بصدق وأمانة في هذه اللحظات الصعبة، الأطباء أيضاً يتعاملون معه بصدق وأمانة ويشاركونه معركته المصيرية، فهم أقرب حلفائه في معركته ضد المجهول، لقد أصبح السرطان بالنسبة له لا يشكل حتماً الموت المؤكد، ولا المعاناة التي لا تطاق.

هو يعلم ويعي أن حياته العائلية أصبحت مهددة وكذلك وظيفته، لكنه مستعد للتحدي، فهو يرغب ويحب التحدي؛ لذا فهو يستعد بكل قوة للتحدي ومواصلة

التحدي دون خوف من المصير الذي ينتظره، قد يتسلل إليه أحياناً شيء من الخوف، لكنه سرعان ما يزول وترتفع معنوياته من جديد، وعد نفسه بأن يستمع إلى نصائح الطبيبة بوتون ابتداءً من الغد ومراجعة حياته لاستخلاص كل ما هو إيجابي.

دخلت الطبيبة، لقد كانت تقدم بعض التعليمات الفنية للكوادر الطبية التي تعمل معها، بعد بعض الألفاظ المطمئنة أخذت تصغي إليه؛ لتعرف مخاوفه وتزوده بالأجوبة الخاصة على الأخطار المحدقة به، صارحها وبكل هدوء بكل شيء، شيئاً فشيئاً انشرح صدره وزالت الاضطرابات التي كانت تتخلله، عرفت الطبيبة من خلال محادثتهما الجو الذي كان يسبح فيه، تعرفت على همومه ومعاناته وخوفه من العلاج المستقبلي، وخوفه من الأغلاط التي ربما يقع فيها زملاؤها المعالجون تحت وطأة ضغط العمل المتزايد، وأخيراً خوفه من المجهول الذي ينتظره... إلخ، سألته كالعادة عن خوفه الذي هو وليد خياله. وليد الظروف المأساوية التي نسجها الخوف، سوف لا يخلصه من مسبباته، بل بالعكس سوف يغذيه الإحساس بالإحباط والهزيمة. أحس أنه لا بد من السيطرة على الخوف؛ لكي لا يفقد صوابه، إذا سيطر على خوفه سوف يكون حليفه النصر، النصر نفسه الذي حققه في العمل، إنه متأكد من النصر في النهاية؛ لذا يجب عليه الانتصار في البداية. غادرته الطبيبة بعد أن ذكّرته بمقولة للكاتب والفيلسوف الفرنسي الشهير (مونتين) وطلبت منه حفظها: (المرء لا يعامل بعنف من طرف الأحداث، بل مما يفكر من خلال هذه الأحداث) ثم سلمته نسخة من الكتاب الذي وردت فيه هذه المقولة.

قامت بعد ذلك سيارة الإسعاف بإيصاله إلى بيته، استقبلته زوجته مرهقاً منهكاً، لكنه كان سعيداً بعودته إلى البيت؛ لينعم بالدفء العائلي، سرد عليها أحداث اليوم وخاصة مقابلته مع طبيبة علم النفس، قرر الاثنان التحدث بصراحة والتخلص من كل ما هو كذب، أو نصف حقائق، بعد مداعبته ابنته شرع فوراً يقرأ الكتاب الذي أعطته إياه الطبيبة، تفاجأت زوجته لكنها كانت سعيدة لهذا التحسن في السلوك. فعادة يفضل زوجها قراءة كل ما هو جديد، أما اليوم.. فقد رجع إلى الوراء ليقرأ لكاتب عظيم.

ذهب إلى المستشفى في اليوم القادم، قام أحد الجراحين بحقنه تحت الجلد، بين الجلد والترقوة، قام البروفسور لو بلان الذي ينوب عن الطبيب لاكروا في أثناء غيابه بفحصه وسؤاله حول إحساسه بعد الحقنة التي أعطيت له، وبعد ذلك قام بمواساته ثم شرع يشرح أشياء فنية للممرضات والطلبة الحاضرين. لم يفهم أبو (أورور) أي شيء من هذه المصطلحات الطبية، إذ أغلبها لاتينية ومتعلقة بمرضه، فهو لم يتعود على هذه المصطلحات الغريبة والجديدة عليه، فلا مقارنة بينها وبين المصطلحات السهلة التي كان يستعملها الطبيب لابانيير أو الطبيب لاكروا، كان يثق في كل من حوله وخاصة في الطبيبة بوتون؛ لذا لم يكترث كثيراً مما سمعه، لم تكن الحقنة لحظة ود، لكنها لم تحدث ردة الفعل نفسها التي أحدثتها بالأمس. غادر المكان في أحسن حالاته، وعند عبوره الممر وهو ينتظر طبيبة علم النفس شاهد العديد من المرضى ينتظرون أدوارهم وهم في حالة مأساوية، حالته أيضاً ليست أفضل منهم بعد أن أصبحت أظافره هشة بسبب العلاج الكيميائي، من خلال نافذة كبيرة في آخر الممر أخذ يتأمل الحياة بالخارج، يتأمل الحياة الحقيقية التي تتجسم في أعمال التوسعة بالمستشفى.

الأعمال سوف تنتهي في شهر ديسمبر 2003م كما تشير لوحة كبيرة معلقة على أحد الجدران المقابلة، قال أبو (أورور) مخاطباً نفسه:

- أين سأكون في ذلك التاريخ؟

قال ذلك والحسرة تكاد تتسبب في إغمائه، بدأت المقابلة مع الطبيبة بمحاولة إقناعه بأنه لا فائدة في محاولة تغيير الوضع الذي هو فيه، هذا سوف يساعده على عدم فقدان اتزانه العقلي، تألم أبو (أورور) كثيراً، قام الاثنان بمناقشة كل ما يمكن تغييره، فاقتنع أنه بمبادرة منه، وهو الوحيد الذي يمكنه القيام بتغيير سلوكه، ومن ثم تأتي التغييرات الأخرى، اكتشف أيضاً أنه الوحيد القادر على تحقيق سعادته، فراح يبحث عن السكينة في تساؤلاته، وقراءاته وأبحاثه وأعماله، وفي معرفته وفي كل ما يسهم في التخلص من الخوف.

في انتظار طبيبه المعالج سوف يحاول التقرب من الطبيب المناوب البروفيسور لوبلان، سوف يخبره بإحساسه ورفضه للأمر الواقع، فهو دائماً يفضل التصدي لأي شيء وعدم الاستسلام بسهولة، من الأفضل ألا يتغير الآن، غادر الطبيب وهو في قمة التفاؤل.

غداً سوف يتلقى الحقنة الثالثة، بقي في المستشفى قرابة الثلاث ساعات تم تقسيمها بين العلاج الكيميائي وبين المقابلة مع طبيبة علم النفس، قامت المرافقة لطبيبة علم النفس بإخضاعه إلى حصة يوغا، سوف يتلقى التدريب نفسه باستمرار سواء بمفرده أو معها. مزاولة هذه الرياضة أعجبته، بمرور الوقت أحس أن هذه التمارين أكسبته هدوءاً لا مثيل له، لقد زال الملل والقلق أيضاً.

لقد شاركته زوجته في مزاولة هذه التمارين، اتفقا على مزاولة هذه الرياضة معاً وفي ساعة معينة من كل يوم، حان وقت الطعام كان لابد له أن يأكل كما أمره الطبيب، قام بدعوة والديه لتناول العشاء معه، تفاجأ الوالدان بقلة شهيته، كما فاجأهم ابنهم بكل ما يحصل له من جراء العلاج الكيميائي: كالحكّة ليلاً أسفل القدم والرجلين والفخذين والآلام المستمرة في أسفل الظهر... إلخ.

في يوم الجمعة 8 نوفمبر قام الطبيب لوبلان والطلبة الذين يرافقونه بإجراء اختبار تحمل العلاج الكيميائي، تم ذلك بسرعة فائقة، بواسطة الصور والرسوم والمجسمات، قام الطبيب المحاضر بشرح مسببات المرض، وماذا حدث له وماذا قد يحدث في المستقبل من مضاعفات كالإرهاق والاستفراغ، ونقص الشهية والأرق... إلخ، وبعد هذا أجاب عن أسئلة الطلبة حول ما حصل للمريض، وماذا تم عمله والغرض من الأدوية التي تعطى له، قام بشرح مبسط لنوعية السرطان، فهو يسمى بـ (حبيبات الشوفان) بالإضافة إلى الكثير من المعلومات الأخرى.

- المهم بالنسبة لك أن هذا السرطان يتفاعل بسرعة مع العلاج الكيميائي. ثم أضاف أنا مرتاح جداً للنتائج، كيف ترى الحالة؟ إذا استمرت فاعلية العلاج على ما هي سوف تخرج معافى إن شاء الله.

- هناك أمل؟

حالياً لا أستطيع تأكيد ذلك، هناك العديد من الأمور تمنعنا من الإجابة إيجابياً عن هذا السؤال، لكن اطمئن في المرحلة الثانية سوف نرى الأشياء بوضوح أكثر.

بعد هذه المقابلة لجأ أبو (أورور) إلى الطبيبة النفسانية والعرق يتصبب من كل جسمه.

خلال آخر الأسبوع أصيب بضعف عام مخيف حتى ظن أهله أنه فقد كل أمل في الحياة، تعب عام، وغثيان، واستفراغ، وفقدان الشهية، وتغير لون لسانه إلى الأسود، واضطرابات في المعدة وأخرى في القلب والهضم وتوتر في الأعصاب وصداع وفقدان الذاكرة، كانت زوجته وأمه وأبوه بجانبه لمؤازرته ومواساته ورعايته بعطفهم وحنانهم، أما أبو (أورور) فكان يحاول التجاوب معهم، كان يصارع المجهول بكل ما يستطيع جسدياً ونفسياً، أصبح لا يتحمل أي شيء حتى الكلام ولاسيما الاستحمام، أصبح لا يستطيع عمل أي شيء على الإطلاق. يوم الإثنين 12 في الشهر ازداد استفراغه إلى درجة لا تطاق فقرر العودة إلى المستشفى وهو صائم، حتى الإحساس بالجوع اختفى.

كان ناقماً على الأرض كلها وعلى نفسه بصفة خاصة، حضر إلى المستشفى دون موعد، لكن الطبيب لاكروا القادم اليوم من أمريكا استقبله لبضع دقائق، وطلب أخذ عينة من دمه فوراً، كما طلب مراقبة حرارته وإعطاء موعد لمقابلته بعد الظهر.

- قبل كل شيء أنا سعيد بمقابلتك من جديد في المستشفى بعد عودتي من أمريكا، خلال المؤتمر تحدثت عنك مع زملائي، فكان اهتمامهم كبيراً بحالتك، لقد بلغت شهرتك إلى العالم كله كأصغر مصاب بالسرطان في العالم، هذه هي نتائج التحاليل التي أجريت على دمك 12.000 صفيحة في المللمتر مكعب، بينما كنت أتوقع بين 4.000 و10.000 و10 غرامات هيموغلوبين بنقص قدره 2 إلى 10 غرام، أكذب عليك لو قلت لك: إني غير متشائم.

لاحظ الطبيب أن قلق مريضه في تزايد، وقد يؤثر ذلك على نفسيته؛ لذا قام باستدعاء الطبيبة النفسية، سوف تقوم برفع معنوياته مستخدمة لغة الحوار المتبادل، ثم تقوم بإخضاعه إلى حصة استرخاء عميقة، هذه معاملة خاصة به فقط دون المرضى الآخرين، وفي الوقت نفسه قام الطبيب لاكروا بتذكيره أنه لابد أن يتعلق بالأمل مهما كان ضعيفاً، وأن يتحلى بالشجاعة وحب الحياة، ويثق في كل من يتفانى في خدمته في هذا المستشفى. لابد له أيضاً ألا ينهزم أمام هذا العدو الشرس.

- أجابه أبو (أورور) قائلاً:

- إني أتجرع العلقم ليل نهار، هل هناك من أدوية مهدئة يمكنها أن تساعدني؟

لدي أفضل من هذه الأدوية، مواعيدي كلها محجوزة لك، ورقم هاتفي مسخر لك أيضاً، بل أرقامي الثابتة تحت تصرفك بالإضافة إلى الطبيبة التي ستكون في خدمتك على مدار الساعة، يمكن لطبيب العائلة أيضاً أن يساندنا في هذه المهمة، لا أريد إعطاءك مسكنات أو مهدئات؛ لأنها سوف تؤجل المشكلة فقط ولا تحلها.

لكن أطلب منك الانتباه جيداً: لو لاحظت قطرات دم في بصاقك أو في مخاط الأنف لابد أن تراجع المستشفى فوراً، حتى لو حصل ذلك في نهاية الأسبوع، هذا دليل على نقص في عدد الصفيحات الدموية، وقد ينتج عنه نزيف حاد، نزيف مميت، هذا مجرد افتراض طبعاً.

وفي صباح الغد حدث ما كان يتوقعه الطبيب، حضر أبو (أورور) إلى المستشفى بعد أن لاحظ أنه يتبول دماً، بعد أخذ عينة من دمه وتحليلها اتضح أن عدد الصفيحات الدموية أصبح أربعة آلاف فقط، فمستوى بهذه الكمية خطير جداً، تم فوراً تزويده بكمية كافية من الدم. كانت هذه الكمية كافية لمساعدته على الرجوع إلى البيت مع زوجته، كانت سعادته لا تقدر، وهو يرى ابنته (أورور) تفتح له الباب وتستقبله بابتسامتها البريئة.

في يوم الجمعة 15 نوفمبر رجع أبو (أورور) إلى المستشفى لفحص دمه والتأكد من عدم هبوط عدد الصفيحات إلى مستوى خطير، لقد تضاعف عدد الصفيحات الدموية ثلاث مرات بعد عملية نقل الدم الأخيرة، هذه الزيادة الملحوظة سمحت للطبيب بالتفاؤل ولأبي (أورور) بالتمسك بالأمل. في آخر الأسبوع نهض أبو(أورور) من فراشه بمظهر جديد، لقد فضَّل شعره الانسلاخ من رأسه والبقاء في الفراش بدلاً من مرافقته كالمعتاد، أما الرموش والحواجب واللحية فبدأت تتساقط تدريجياً، وجلده بدأ ينشف شيئاً فشيئاً، في حدود المقبول؛ لذا لجأ إلى المراهم المرطبة علّها تخلصه من هذا الجفاف المفاجئ، بعد حالة الطوارئ التي مر بها انتهت المرحلة الأولى من العلاج الكيميائي.

تم حقنه بالجرعة الأولى من العلاج الكيميائي للمرحلة الثانية بعد أخذ عينة من دمه وتحليلها، كانت المفاجأة كبرى! ارتفع عدد الصفيحات الدموية إلى 90.000، هذه مفاجأة إيجابية، لكن المفاجأة الثانية كانت سلبية، لقد نزل عدد الكريات البيضاء إلى 2.500. فاضطر الطبيب لاكروا ومساعده إلى إجراء تعديل على الحقنة التي أعطيت له، بعد مرور أسبوع على الحقن الثلاثة الأولى ارتفع عدد الصفيحات الدموية إلى 640.000 وعدد الكريات البيضاء إلى 10.500، لا يمكن الحصول على أكثر من هذا في مدة وجيزة.

بالرغم من أنه لازال مرهقاً أحسّ أبو (أورور) بشيء من الراحة والسعادة، إذ شعر وكأنه تم تزويده بأجنحة جديدة.

وفي 9 ديسمبر انخفض عدد الكريات البيضاء إلى 600 فقام الطبيب المعالج بتزويده بمضادات حيوية يتناولها عن طريق الفم للوقاية فقط.

- حاول بقدر المستطاع أن تتجنب أي التهاب، إذا ارتفعت درجة الحرارة أكثر من 38.3 درجة، وأحسست بالقشعريرة لا تتردد لحظة واحدة في مراجعة المستشفى لتلقي جرعات قوية من المضادات الحيوية عن طريق الحقن.

رجع الطبيب إلى الخلف وذكّره أن أحسن ما فعله هو إقلاعه عن التّدخين، وشرح له بواسطة مخطط كيف تحسنت حالته بعد هذا التوقف، وشكره أيضاً على إيقافه التّدخين قبل فوات الأوان.

ارتفعت معنويات أبي (أورور) بعد هذه المقابلة، فبدأ يفكر في مشروعاته المستقبلية، سوف يكرس أسبوعاً كاملاً للعائلة والأصدقاء، والقراءة بالطبع ومشاهدة التلفاز ومتابعة كل جديد عبر الإنترنت، كان متأكداً أن كل أصدقائه حتى أولئك الذين هجروه دون قصد سوف يقومون بزيارته للاطمئنان عليه، كان عازماً على دعوة بعضهم لجلسة عائلية، وإذا استمرت حالته في التحسن، فسوف يجري اتصالاً بالشركة التي يعمل فيها ويخبرهم بعودته القريبة إلى مزاولة عمله، ربما نصف دوام فقط.

بدأ يجري بحوثاً عن مرضه عبر الإنترنت، فحصل على العديد من المعلومات، بعض منها كانت متناقضة، لكنه استنتج من هذه المعلومات أن المدة المتبقية من حياته لا تتجاوز الثمانية أشهر، كان لهذه المعلومة وقع سيئ لكنه حاول ألا يصدق مصدرها، غضب غضباً شديداً، غضب من شركات التبغ التي أوقعته في فخ التّدخين، وغضب من الأطباء الذين لم يوجهوا له النصح بما فيه كفاية، غضب أيضاً من والديه وحتى من فلورانس التي كان من المفروض أن تكون بجانبه أكثر أيام الشدة، غضب أيضاً من صاحب الرسائل المجهولة ومن نفسه أيضاً.

كان شاحب اللون هذا اليوم، ودقات قلبه مرتفعة، كان خفقان قلبه يزيد من شعوره بالألم، فاستسلم لتمارين اليوغا؛ عله يجد فيها راحة، فوجدها فعلاً، وأحس بتحسّن فقرر أن يثق بالمستشفى من جديد وينسى المعلومات التي اقتناها من الإنترنت؛ لأنها قد تزيد من توتره وقلقه، قرر أن ينسى التفكير في الموت القريب والتمتع بالهواء الطلق، كما نصحته الطبيبة بالتمتع بالحرية والتفكير، والابتعاد عن أي شيء اسمه اندفاع، ازداد إحساسه وتمتعه بأي شيء جميل حوله: وجمال الأشياء، وجمال الحركات، وجمال القلوب، جمال كل شيء حوله، حتى تلك الأشياء

التي لم يمكن يعيرها أي اهتمام من قبل، كانت رغبته أن يكمل الصفحات البيضاء من الألبوم العائلي بصور جميلة أيضاً.

قبل أن يقرر العودة إلى العمل قرر القيام بأعمال خيرية لمساعدة غيره، مساعدة من هو يعاني مثله، هل هذه صحوة متأخرة تعبيراً عن وعيه ومستواه الثقافي العالي؟ رجع إلى الماضي وأجرى تقويماً عاماً لحياته، فرأى أنه من بين الأسباب التي دعته إلى التّدخين رؤية أمه وهي تتعذب من هذا التصرف الطائش أكثر من تقليد المدخّنين، كان يدخن لكي ينتقم من أمه، لقد فكر في ذلك كثيراً، يا لها من تجربة سيئة مرّ بها!

عله يفيد غيره بعد هذه التجربة المرة، ما هو عمل الخير الذي يفكر فيه؟ بعد الأخذ والرد اقتنع أن أحسن عمل يفعله هو أن يصبح عضواً فاعلاً في هيئة المحاربين للتدخين.

هكذا بدأت حياته الجديدة ترتسم، اهتمامه بابنته أولاً ثم الزيارات إلى المستشفى، والقراءة والتنزه في الحدائق؛ بحثاً عن الهواء النقي وزيارة الأهل والأصدقاء، لقد زاره العديد من الأصدقاء في الآونة الأخيرة، فبعضهم خجل من نفسه لقلة الزيارة وبعضهم لم يستطع التفوه بكلمة واحدة، وآخرون جاؤوا بدعوة من فلورانس أو بدعوة من الوالدين، فكانوا مهيئين للرد على لومه لهم وشعوره بالخيبة والأسى نحوهم، كانت هذه الزيارات مصدر انتعاش لأبي (أورور)، لقد كان يحث كل صديقة مدخنة أو كل صديق مدخن على الكف عن التّدخين فوراً.

حدد مع كل مدخن جدولاً زمنياً للإقلاع عن التّدخين، ووعدهم بمساعدتهم في هذه المهمة الصعبة بموجب تجربته في هذا المجال.

بالرغم مما يعانيه من مرض، فلقد كان يتجنب الحديث عنه مع أصدقائه؛ لأن المرض يتحدث نيابة عنه، رسالته كانت واضحة، فهو يريد أن يلفت انتباههم إلى أن السّجائر تضر الجسد والعقل، معاً، صار أبو (أورور) يكرس كل وقته للتعرف على

أضرار التبغ من خلال أرشيف شركات السّجائر الذي يحصل عليه من خلال الإنترنت، عرف أيضاً من خلال الفيلم (التصريح)، الذي تم عرضه في التلفاز أن شركات السّجائر تتسبب في موت خمسين في المئة من المدخّنين.

كان هدف أبي (أورور) توجيه رسالة مفصلة عن المواد التي تضاف إلى السّجائر، بالإضافة إلى أسماء الشركات التي تزودهم بها، فهو أول ضحايا هؤلاء القتلة، كان يظن أن التّدخين رمز الحرية، لكنه سرعان ما اكتشف أنه رمز العبودية، بعد أن أصبح سجيناً ويصبح اليوم فريسة سهلة لا ينتظرها إلا الحكم بالإعدام المؤجل.

فهو يتخيل من لحظة إلى أخرى أن الموت آتٍ لا محالة، كما يتصور مغادرة هذا الكون كرحلة طويلة أو إجازة أطول. انتهت المرحلة الثانية من العلاج الكيميائي، بتفاؤل الأطباء المعالجون، أما المرحلة الثالثة، وسوف تبدأ في 6، 7، 8 يناير 2003م، كان أبو (أورور) يفكر فيها وفي بعض اللحظات السيئة التي عاشها مع الطبيب لاكروا والطبيب لا بانيير، كان يفكر أيضاً في بعض الوجوه المتشائمة لمعالجيه أو أصدقائه الذين يتظاهرون بالتفاؤل، شفقة عليه، لكنه سرعان ما تخلص من هذه الأفكار الانهزامية؛ لأنه اقتنع أن أي شيء قد يحصل له ربما يحصل أو ربما لا، مهما كانت خطورته، حتى لو كانت فرصته في الحياة لا تتجاوز 10٪ فيجب التمسك بها.. ومن جهة أخرى كان يقول لنفسه من يستطيع أن يضمن الحياة لنفسه غداً؟ لا هو ولا غيره، عندما يردد هذا أمام زوجته وأبويه وأخته وأخيه يصفق له الجميع؛ لأنهم مجرد متفرجين عاجزين عن عمل أي شيء.